بسطة عن حياة المسلمين في عصر :

فخر الدين الرازي

بقلم الدكتور الشيخ الطيب سلامة

نقد المصادر

يعد عصر الرازي كما يعد الرازي (فخر الدين المعروف بابن الخطيب) نفسه من الموضوعات التي لم تأخذ حقها من عناية العلماء وبحث الباحثين ولعل هذا من الأسباب التي ترغب في الإقبال على مثل هذين الموضوعين ؟

– والعمل المتواضع الذي قمنا به في كشف الغطاء عن بعض جوانب عصر الرازي لا يعدو أن يكون محاولة اعتمدنا فيها ما أمكن من المظان الأساسية المشتتة بين مختلف الكتب التي لم تكن خاصة بهذا العصر دون سواه اذ لا يوجد – في نطاق ما اطلعنا عليه – كتاب انتهج في حديثه نفس المنهج الذي سلكناه في هذا البحث ، ولا معلومات مجموعة على هذا الوجه .

– والكتب التي اعتمدناها هي بين : مصادر قديمة قدم هذا العصر أو تقرب منه على تفاوت يسير بينها . وبين مراجع اختص كل منها بجانب ، بعضها لشرقيين ، وبعضها لمستشرقين ممن عنوا عناية بالغة بالحضارات الشرقية والإسلامية .

1) المصادر :

أما المصادر فيمكن تبويبها على النحو التالي :

أ) الكتب التي أرخت الاحداث المطلقة كابن الأثير في كتابه : **الكامل في التاريخ**، ويعتبر كتابه في الدرجة الأولى التي لا يمكن أن تتقدم عليها إلا الآثار والنقوش ، وهذه لم نقف عليها ولا يتأتى ذلك بالنسبة لما نحن فيه لأسباب مادية واضحة .

فابن الأثير المتوفى سنة 630 / 1232 يعد من أهل العصر الذي نتحدث عنه وان كان في غير المكان بالذات اذ قد عاش في بغداد على تخوم بلاد العجم التي كانت تصله منها الروايات بأخبارها ، ويعتبر تاريخ ابن خلدون في هذا القسم .

ومن كتب التاريخ ما انتهج منهجا خاصا به قصد تحقيق غرض معين مثل كتاب محمد النسوي المتوفى 639 / 1241 الذي قصد من تأليفه وضع سيرة لمخدومه جلال الدين منكبرتي اخر سلاطين خوارزم فقد أطلعنا هذا الكتاب – رغم التواء أسلوبه – على كثير من الوثائق والحقائق ، ومثل كتاب البنداري : **مختصر تاريخ دولة ال سلجوق** الذي يتحدث عن السلاجقة . والذي يعنينا منهم على التحديد هو اخر سلاطينهم السلطان سنجر . والبنداري من المعاصرين أيضا اذ كانت وفاته سنة 643 / 1245 .

ومن هذا المنحى تقريبا : كتاب ابن العبري المتوفى 685 / 1286 وهو : **مختصر الدول** وكتاب ابي الفداء المتوفى 732 / 1331 وهو : كتاب **المختصر في أخبار البشر** . وكتاب المقريزي المتوفى 845 / 1442 وهو : **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك** ويأتي بعد ذلك كتابان يعتبران من أقدم المصادر وأهمها إذ جمعا بين التاريخ والجغرافيا والتراجم أحيانا وهما :

كتاب ياقوت الحموي المتوفى : 626 / 1228 (وهو معاصر تقريبا) **معجم البلدان** .

وكتاب زكريا القزويني المتوفى 682 / 1283 وهو : **أثار البلاد وأخبار العباد** وهو كتاب تاريخ وجغرافيا أيضا .

ب) كتب التراجم والطبقات التي جاءت المعلومات فيها مقتبضة طورا ومحرفة بعض الشيء طورا آخر ، والواجب على المتتبع لها أن يحذر الوقوع في الزلل ، وقد اعتمدنا مجموعة كبيرة من هذه الكتب :

- **تاريخ الحكماء** للقفطي
- **طبقات الأطباء** لابن أبي أصيبعة
- **وفيات الأعيان** لابن خلّكان
- **الوافي بالوفيات** للصفدي
- **مراة الجنان** لليافعي
- **طبقات الشافعية** للسبكي
- **البداية والنهاية** لابن كثير
- **الدرر الكامنة** لابن حجر
- **بغية الوعاة** للسيوطي
- **روضات الجنات** للخوانساري

هذا بالاضافة إلى بعض المراجع الحديثة التي عنيت بالتراجم والطبقات فأصبحت بمثابة أدوات العمل التي لا غنى عنها من ذلك **كشف الظنون** ، **ومعجم المطبوعات** ، **والإعلام** ، **ومعجم المؤلفين** وغيرها من هذه الأدوات التي لا غنى للباحث عنها لتسهل عليه أمر البحث .

ج) وفي درجة لا تبعد عن كتب التراجم والطبقات **تأتي** كتب تاريخ الحضارة مثل كتاب **الأحكام السلطانية** للماوردي ، وكتاب **صبح الأعشى** للقلقشندي ويعدّ في نفس القيمة تقريبا كتاب **تراث فارس** (Melange) وهو عبـارة عن مجموعة مقالات ترجمت إلى العربية وقد كتبها جماعة من المستشرقين الذين تخصصوا في الدراسات الشرقية وفي حضارة الإيرانيين والفرس . كما يدخل في هذا الصنف القواميس الحضارية مثل قاموس (DOZY)

د) استفدنا في هذا البحث من عدّة كتب علمية ولو لم تقع الاحالة عليها أحيانا ومن هذه الكتب : **مفاتيح الغيب** للامام الرازي **واعتقادات فرق المسلمين والمشركين** للرازي أيضا . **واحياء علوم الدين** و **تهافت الفلاسفة** للغزالي ، **تفسير الكشاف** للزمخشري ، وكتاب **الحيوان** للجاحظ .

كل هذه الـكتب قد استفدنا من مطالعتها استفادة عظيمة ولو لم تظهر هذه الاستفادة محصورة في عدد من التهميشات .

2) المـراجع

أما المراجع التي وقعت الإستعانة بها فهي كما يلي :

أ) كتب المستشرقين وفي طليعتها : **تاريخ الأدب في إيران** لايدوار براون ومذاهب التفسير لغولد تسيهر ، وغيرهما مثل كتاب كرايمر في نطاق محدود لأنه بالألمانية

ب) مقالات بعض المستشرقين في **دائرة المعارف الإسلامية** نخص بالذكر منهما :

J. Sourdel Thomine و C. E. Bosworth وغيرهما .

ج) كتب عربية أو مترجمة عن الفارسية لبعض المعاصرين من المشارقة مثل :

حسن ابراهيم حسن في كتابه : **النظم الإسلامية**

وحافظ حمدي في كتابه : **الدولة الخوارزمية والماغول**

ورضا زادة شفق في كتابه : **تاريخ الأدب الفارسي** (مترجم عن الفارسية)

وعبد المتعال الصعيدي في كتابه : **المجددون في الإسلام** .

هذه هي الـكتب التي سمح الوقت بالوقوف عليها وكان في الاماكن الوقوف على أكثر منها بـكثير وخصوصا الدوريات والحوليات التي أصبحت نادرة ندرة الوثائق المخطوطة .

وقد تيسّر لنا أن نطّلع على جملة من المخطوطات ، التي ترجع إلى مؤلفين من هذا العصر بقصد استخدامها فيما كنا نعتزم المضي فيه من الحديث عن شخصية الرازي واثاره ومنهجه في تفسير القران الـكريم ولـكن حال دون ذلك ضيق الوقت الذي حدد لنا لتقديم هذا البحث ، وعسى أن تسمح الفرص القريبة بإتمام ذلك بحول الله وحسن عونه .

المقدمة

لا غنى للباحث إذا ما أراد أن يقف على حقيقة الوضع ، وواقع الحياة في عصر من العصور ، عن أن يجد السبيل للنفاذ إلى صميم الحياة المعاشة في ذلك العصر ، دون الاقتصار أو الرضى بما تقدّمه المصادر التي تقتصر غالبا على تصوير الأوضاع السياسية وحدها ، كما هو الشأن في أغلب المصادر التاريخية التي وجهت عنايتها إلى تسجيل حياة القصور والحكام ، بمعزل عن حياة الجماهير في أغلب الأحيان .

والنفاذ إلى صميم الحياة المعاشة يتطلب عناية واستخداما للأحداث – وإن بدت تافهة – إذ كم من أحداث يمرّ بها الدارس ولا يلقي لها بالا ، ولكنّها ذات دلالات عميقة ، وبعيدة المدى ، لمن أراد الكشف عن الأوضاع الاجتماعية والثقافية بالمفهوم الواسع .

ولعل عصر الإمام فخر الدين الرازي الذي نعنى به في هذه الدراسة يتطلب بصورة أكثر تأكيدا الوقوف على مختلف الأحداث ، وتحليلها ، ونقدها ثم الاستنتاج منها : حتى تكون النتائج أقرب إلى الحق والواقع ، خصوصا وهذا العصر قد عرف بأنّه عصر كثرت فيه الدويلات ، وتعددت الاضطرابات وتالفت فيه العجائب والمتناقضات ، ولم تحفل المصادر بعديد الجوانب من ذلك .

وقد أقبل العديد من الباحثين على دراسة هذا العصر شغفا به ، وتحدّيا لقصور المصادر التي تناولته ، فلم يأتوا في أبحاثهم بنتائج متطابقة ، بل كانت نتائجهم متفاوتة ومتكاملة .

ونحن إذا نشاركهم بهذا البحث في خصوص هذا العصر ، فإننا نرجو أن نكون قد أتينا فيه بالجديد المفيد الذي يتكامل مع بحوث أخرى ، ويوفر على الباحث المبتدي سبيل السير المطمئن ، الذى يحميه من العثرات الخطيرة وإذ أترك التنصيص على الدوافع التي حملتني على العناية بعصر الرازي ، فذلك اعتمادا على فطنة المتتبّع لهذه الدراسة ، وعلى المميزات البارزة والخصائص العديدة التي ركزنا عليها ، والتي كانت في البداية مبعث شغفنا بهذا العصر ، وما توفيقي إلا بالله تعالى ، وبه ثقتي وأستعين .

القســم الأول

عصــر الـرّازى

1) الـوضع السياسـي :

أ) الخـلافة العبـاسية :

الفترة التي تعنى بالذات من تاريخ الخلافة العباسية هي الفترة الواقعة بين سنتي : 530 / 1136 و 622 / 1225 . وقد تداول فيها على الحكم أو بالأحرى تبوأ عرش الخلافة أربعة من الخلفاء هم :

- المقتفـي من سنة 530 / 1136 إلى سنة 555 / 1160
- المستنجـد من سنة 555 / 1160 إلى سنة 566 / 1170
- المستضـيء من سنة 566 / 1170 إلى سنة 575 / 1180
- النـاصر من سنة 575 / 1180 إلى سنة 622 / 1225

والحديث عن هذه الفترة في هذه الرقعة بالذات وأعني بذلك بغداد وان كان لا يتصل اتصالا مباشرا بحياة الرازي إلا أنّه يتصل بالحديث عن الدويلات التي عاش الرازي بينها باعتبار أنّ الخلافة العباسية تتخذ في مثل هذه الحال كمحور الدائرة الذي ترتبط به سائر الأقطار الأخرى . وتؤرخ الأحداث بالاقتران به والإنطلاق منه .

لقد اعتمدت الدولة العباسية منذ نشأتها على العنصر الفارسي فاتخذت من هذا العنصر النّصير لها والوزير ، وكان القصد من ذلك ــ حسبما يبدو ــ

أن تتفادى الشغب الذى قد يثيره العنصر العربى ، بحكم أن هذا العنصر لا يقرّ لهم بالأفضلية ولا بالقداسة التي يقرّ بها الأعاجم للملوك والحكام عادة . وإذا كان الانتساب إلى بيت النبوة يضفي على بني العباس شرفا كبيرا في أعين الأعاجم ، فإن ذلك عند العرب يعتبر ضربا من انتحال القيم الغير المكتسبة والتي لا يكون بها تفضيل في نظر الاسلام .

وقد استطاع هذا العنصر الفارسي أن يستولى على السلطة الفعلية في الدولة رغم قوة الخلافة التي استطاعت أن تقف مواقف تأديبية حازمة من هؤلاء الفرس في وقت ما ، ولكنها لم تنجح في القضاء على طموحهم نهائيا ويعتبر المؤرخون أن النفوذ العباسي أخذ يتضاءل أمام العنصر الفارسي ابتداء من خلافة المعتصم (1) (179 / 795 — 227 / 841) فحاول العباسيون التخلص من هذا العنصر، فاستعانوا عليه بالعنصر التركي ، وهذا ما يبرر الكثرة المهولة من الأتراك المماليك الذين أصبحت تعج بهم قصور الخلافة ، فالمعتصم نفسه كان له بضعة عشر ألف غلام من الأتراك (2) وليقس على ذلك قصور الأمراء والعظماء والأثرياء في بغداد وغير بغداد من الأمصار الاسلامية ولكن هذه المحاولة لم تأت الا بعكس النتيجة المرجوّة (3) ، فقد فرّ العباسيون من دهاء الثعلب ليقعوا بين فكي الأسد . وكاد الأتراك يقضون على الخلافة لولا أنهم أدركوا ما في ذلك من مضرة تلحقهم ، إذ بقاء سلطة شرعية (متمثلة في هيبة الخلافة) يستندون إليها وتشد أزرهم ، مع تجريدها من كل نفوذ عملي أولى لهم وادعى لاعتراف المسلمين لهم بالشرعية .

وهكذا تصاب السلطة في العالم الإسلامي بالشلل في مكان القلب النابض منها — في بغداد — فيسرى الدّاء إلى الأطراف وتنشأ الدويلات المتناحرة المتنافرة ، وتعيش هذه الدويلات على حساب بعضها البعض ، وترتفع احداها

---

(1) انظر حمدي : ص 17
(2) انظر : الخطيب البغدادي : 3 ، 346
(3) انظر : ابن خلدون ، المقدمة : ص 153

على أكتاف الاخرى وفقا لشرعة الغاب : الضعيف فريسة القوي ، وعلى هذا المنوال استمرّ الحال ، ولا علاج ولا مخلص إلى أن حلّت بالمسلمين الكارثة العظمى واكتسح المغول تربتهم فلم يبق ولم يذر .

وكانت بلاد العجم من أكثر البلاد استجابة لدواعي التفرقة والنزاع ، كما كانت من أخصب البلاد لانبات الفرق والمذاهب ، وبالتالي كانت مسرح الفتن الداخلية التي لم يهدأ لها أوار ، فلا عجب بعد هذا إذا ما صارت منفذا لأقوام الغازين من التتر .

على أن الواقف على تاريخ القرون الثلاثة التي سبقت سقوط بغداد يدرك – دون كبير عناء – ما للعنصر التركي من تأثير كبير فيما آلت إليه بلاد الشرق الإسلامي عموما . فطيلة هذه القرون لم يتوقف الزحف التركي إلى داخل البلاد الاسلامية ، فكانت الحدود الشمالية الشرقية للامبراطورية العباسية ينبوعا تتدفق منه البشرية إلى غربي آسيا . وكان هذا التدفق احدى ظواهر العصر التي حاول المؤرخون وعلماء الاجتماع تحليلها وبيان أسبابها ، فكانت تعود حسبما يبدو إلى عوامل متعددة :

– منها عوامل سياسية تدفع بهؤلاء الأقوام إلى الهجرة بسبب شعورهم بعدم الإستقرار والأمن في بلادهم .

– ومنها عوامل اقتصادية تتمثل في انحطاط مستوى عيشهم بالإضافة إلى قلّة الخيرات في بلادهم ووفرتها في بلاد الإسلام ، مما أطمعهم فيها .

– ومنها عوامل ديموغرافية ، بسبب توافر النسل عندهم فاضطرّ العدد المتزايد من النشء إلى البحث عن مأوى جديد وفسحة من الرزق .

هذه – فيما يبدو – أهم العوامل التي شجّعت هؤلاء الأتراك المتاخمين لبلاد الإسلام على الهجرة إليها ، سواء في جماعات صغيرة أو في جموع محاربة مكتسحة ، لا همّ لها إلا الاستيلاء على مواطن الثروة .

والغريب أن كلّ هذا يجري وحكام المسلمين لا يقفون من هؤلاء الأقوام الرابضين على حدود بلادهم موقف حزم وجدّ ، ولعلّ ذلك يعود

إلى انشغال هؤلاء الحكّام بالفتن والقلاقل الداخلية . ثم نجد هؤلاء الحكام والخلفاء من جهة أخرى ينبهرون بجمال خلقة هؤلاء الأتراك وقوّة أجسامهم وشجاعتهم ، فيكثرون من اقتنائهم فتنشط التجارة فيهم، وتروج بهم الأسواق ، وتبعا لذلك تنشط حركة القرصنة ويكثر اختطاف الصغار منهم ، ليبتاعهم عملاء الخلفاء والأمراء ، ثم ليربوا في البلاطات تربية إسلامية .

ويعتبر « دهسون » في كتابه **تاريخ المغول** (طبعة باريس 1824) أن طبقة تكونت من هؤلاء الأتراك تولت الحراسة في الدولة كما تولت الوظائف العامة المختلفة (1) وهكذا تكاثر عدد هؤلاء الأتراك في الدولة الإسلامية (2) وكبر خطرهم بتزايد اعتماد الخلفاء عليهم ، حتى استاثروا بكلّ شيء وسلبوا الخلفاء كل شيء .

وكذلك كان أمر الخلفاء الأربعة (3) الذين تتفق مدّتهم في بغداد مع الفترة التي عاشها الرازي في بلاد العجم ، فلم يخرجوا عن القاعدة إذ انتزع منهم السلاجقة والخوارزميون من بعدهم سلطتهم الزمنية ولم تبق لهم الا سلطة روحية شانهم في ذلك شأن الكنيسة المسيحية في بلاد الغرب مع الأباطرة ، فهي تمثل السلطة الروحية وهم يمثلون السلطة الزمنية .

هكذا أصبحت الخلافة العباسية في هذا العصر اسما بدون مسمى حتى أنك تبحث عنها في الخرائط الموضوعة لهذا العصر فلا تجد وتجد بدلها « الامبراطورية السلجوقية » (4) في حين كانت هذه الامبراطورية العباسية تمثل كل العالم تقريبا في القرنين الثاني والثالث للهجرة وقد تركزت قواعدها فكانت اخذة بثلاث قارّات : آسيا – افريقيا – وأروبا – وما سواه من العالم الغير الاسلامي لا يعدّ شيئا (5) .

---

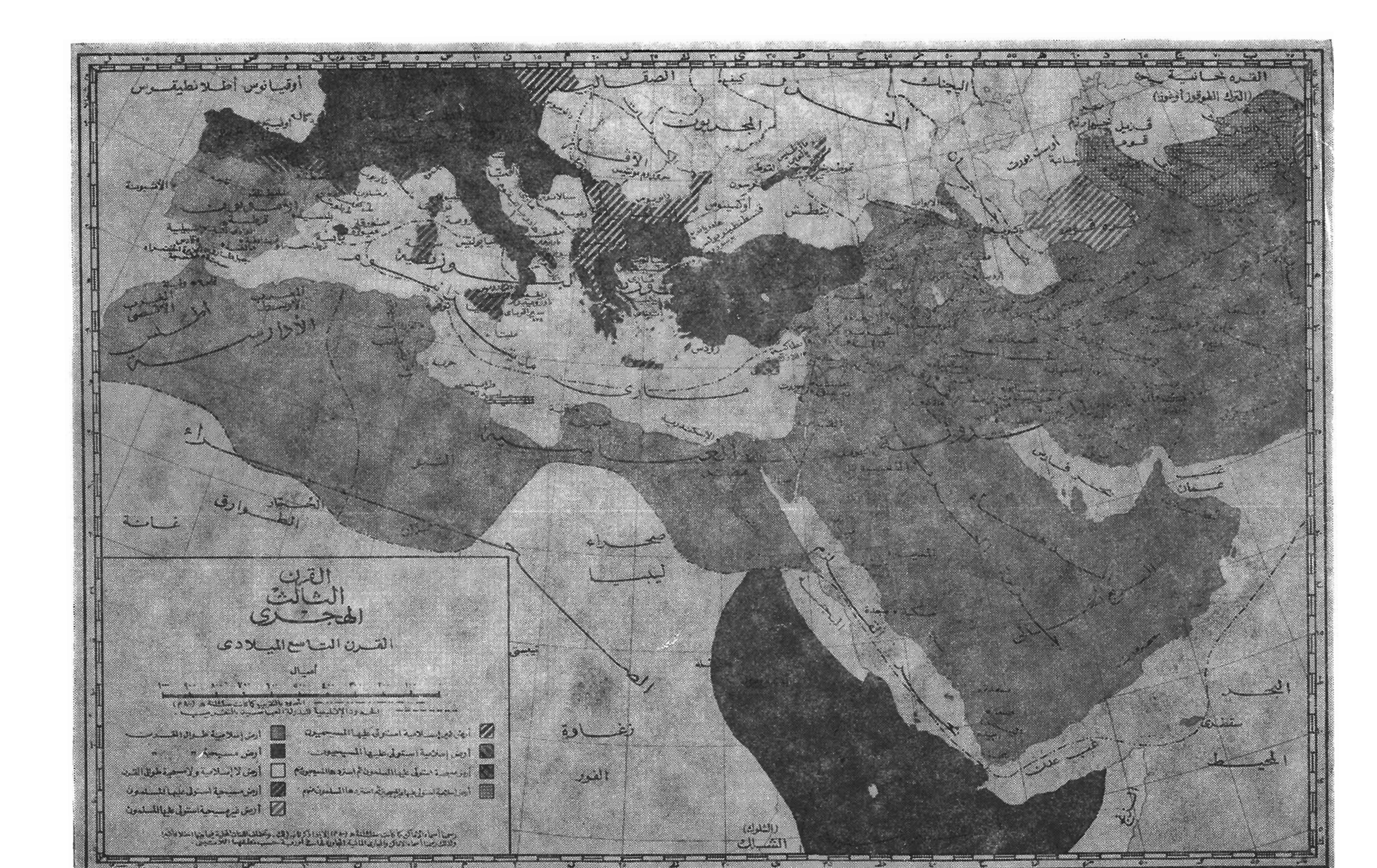
(1) انظر حمدي ص : 18 .

(2) انظر دائرة المعارف الاسلامية : 5 ، 49 – 52 . (مادة الترك بمقلم : W. Barthold)

(3) انظر : عدد 6 الى عدد 9 من الكشف (في خلفاء الدولة العباسية منذ العصر السلجوقي إلى سقوط بغداد) فيما يلي .

(4) انظر : خريطة العالم الاسلامي في القرن السادس الهجري الاتية .

(5) انظر : خريطة العالم الاسلامي في القرن الثالث الهجري فيما يأتي .



القرن
الثالث
الهجري
القرن التاسع الميلادي
أميال
أرض إسلامية طوال القرن
أرض مسيحية
أرض لا إسلامية ولا مسيحية طوال القرن
أرض مسيحية استولى عليها المسلمون
أوقيانوس أطلانطيقوس
الصقالبة
البجناك
الخزر
القره خانية
الأدارسة
غانة
الطوارق
صحراء
ليبيا
زغاوة
عمان
البحر
المحيط

خلفاء الدولة العباسية
منذ العصر السلجوقي حتى سقوط بغداد
447 ـ 656 هـ = 1055 ـ 1258 م

(1) القائم
|
محمد
|
(2) المقتدي
|
(3) المستظهر

- 4 ـ المسترشد
  - 5 ـ الراشد
- 6 ـ المقتفي
  - 7 ـ المستنجد
  - 8 ـ المستضيء
  - 9 ـ الناصر
  - 10 ـ الظاهر
  - 11 ـ المستنصر
  - 12 ـ المستعصم

1 ـ القائم	: 422 ـ 467 هـ	= 1031 ـ 1075 م .
2 ـ المقتدي	: 467 ـ 487 هـ	= 1075 ـ 1094 م .
3 ـ المستظهر	: 487 ـ 512 هـ	= 1094 ـ 1118 م .
4 ـ المسترشد	: 512 ـ 529 هـ	= 1118 ـ 1135 م .
5 ـ الراشد	: 529 ـ 530 هـ	= 1130 ـ 1136 م .
6 ـ المقتفي	: 530 ـ 555 هـ	= 1136 ـ 1160 م .
7 ـ المستنجد	: 555 ـ 566 هـ	= 1160 ـ 1170 م .
8 ـ المستضي	: 566 ـ 575 هـ	= 1170 ـ 1180 م .
9 ـ الناصر	: 575 ـ 622 هـ	= 1180 ـ 1225 م .
10 ـ الظاهر	: 622 ـ 623 هـ	= 1225 ـ 1226 م .
11 ـ المستنصر	: 623 ـ 640 هـ	= 1226 ـ 1242 م .
12 ـ المستعصم	: 640 ـ 656 هـ	= 1242 ـ 1258 م .

ب – الدولة الغزنوية

الفترة التي تعني من تاريخ هذه الدولة هي الفترة الواقعة بين سنتي : 512 / 1118 و 583 / 1187 .

وتبدأ هذه الفترة بولاية بهرامشاه بن مسعود الثالث الغزنوي ، ثم يليه ابنه : خسروشاه ، ثم يليه اخر ملوك الغزنويين : خسروملك .

قامت الدولة الغزنوية على انقاض الدولة الصفارية وفي نفس الرقعة الترابية تقريبا ، بعد انتقاص : سيراف على الخليج الفارسي – وفيروزاد (شمالها) إلى يزد شمالا ، وما بعد برد سير شرقا . إلا أن الغزنويين قد توغلوا شرقا في بلاد الهند بعيد لاهور . في هذه الرقعة الفسيحة الواقعة في الشمال الشرقي من العالم الأسلامي عاشت الدولة الغزنوية وعاصمتها غزنة . وكان يتاخمهم البويهيون الذين بسطوا نفوذهم على قلب البلاد الاسلامية ، أعني بذلك العراقين وفارس .

وفي القرن السادس / الثاني عشر انتقصت مملكة الغزنويين ولم تعد تشمل خراسان ولا أغلب منطقة كرمان ، وكان هذا الانتقاص لفائدة الدولة السلجوقية ، كما توالى انتقاصها بعد ذلك لفائدة الغور مرة ولفائدة الغز مرة أخرى .

كان ملك الغزنويين في هذه الفترة – أي بعد موت مسعود الثالث سنة 509 / 1115 بيد ابنه – «بهرام شاه» الذي صارع اخويه : شيرزاد المتوفى 1116/510 ، ثم ملك أرسلان المتوفى سنة 1118/512 وقد وقع هذا في أسر أخيه بهرام شاه فأمر بخنقه ، وهكذا تم اعدامه بفضاعة . وما كان الأمر ليستتب لبهرام شاه لو لا مناصرة جيش سنجر السلجوقي له . هكذا استولى بهرام شاه على غزنة بعدما أهرقت الدماء بين الاخوة ، كما استولى على مقاطعة البنجاب بعد ثلاث غزوات .

وما كان لسنجر أن يفعل ما فعله احتسابا وقربانا بل كان يهدف إلى بسط نفوذه على بلاد غزنة،ولهذا فرض على بهرام شاه الذى دان بالطاعة

اتاوة يومية يدفعها له ، وتحدد بعض المصادر مبلغها فتذكر أنها تبلغ ألف دينار في اليوم (1) .

فسنجر الذي كان مناصرا لبهرام شاه على أخويه في أول ولايته حتى تم له الأمر على غزنة سنة 1118/512 يصبح عدوا له ، لأن بهرام شاه تنكر للجميل وأراد أن يتخلص من سلطة صاحب نعمته سنجر ، فاضطر هذا إلى تأديبه سنة 529 ـ 30 / 1135 وإرجاعه إلى الطاعة وأداء الاتاوة .

ثم يعمد بهرام شاه إلى افساد علاقات حسن الجوار والمصاهرة مع ملوك « فيروزكوه » وذلك بعد مضي اثنتي عشرة سنة من وقعته مع سنجر فقتل صهره : قطب الدين محمد من أمراء الغور ، فأسرع اخواه : علاء الدين حسين وسيف الدين سوري للأخذ بالثأر ، وحالفهما النصر اذ استطاعا أن يطردا بهرام شاه من غزنة سنة 543 / 1148 ، ونصب سيف الدين حاكما على غزنة من قبل أخيه علاء الدين .

وفي السنة الموالية عاد بهرام شاه لاستعادة غزنة فاستعادها وظفر بسيف الدين سوري وبأتباعه فقتلهم وصلب سيف الدين .

وأثارت الموقعة الثانية حقدا عظيما في قلب علاء الدين حسين ، فانطلق كالطير الكاسر نحو غزنة ، ففر بهرام شاه نحو الهند تاركا رعاياه الأبرياء يتجرعون شر المحن التي لم يكونوا سببا في شيء منها .

وفعلا دخل علاء الدين حسين بجيوشه غزنة أواخر سنة 545 / 1150 فأنزل بها سخطه طيلة ثلاثة أيام ، فقتل ونهب وأحرق ودمّر .

وقد اختلفت المصادر في اعتبار الزمن الذي جرت فيه هذه الحادثة فقد أفادت طبقات ناصري : أن بهرام شاه استعاد عرشه مرة ثانية بعد أن

(1) انظر : Enc. de l'islam, Tome II, P. 1077 (Art. Ghaznawides, par B. Spuler)

هزم سنجر (السلجوقي) علاء الدين حسين (الغوري) بسبب حماية سنجر للغزنويين ، واعتبرت مصادر أخرى مثل تاريخ كزيدة وميرخوند أن بهرام شاه مات قبل نهب مدينة غزنة ، وإنما وقع هذا النهب في لاية ابنه : خسروشاه (1) .

وعلى الرواية الأولى يكون بهرام شاه قد توفي بغزنة سنة 552 / 1157 وتولى الملك بعده ابنه الثاني خسروشاه .

وفي هذه السنة مات أيضا سنجر (السلجوقي) الذي رغم فرض سيادته على الغزنويين يعد موته نكبة لهم ، إذ كان حاميهم ونصيرهم ضد أعدائهم الغور . وفعلا فقد آل الأمر بفقدانه إلى تطاول الغور على مملكة غزنة واستيلائهم على رميندوار وبست تجناباد ، ولم يبق بيد الغزنويين إلا غزنة وزبلستان وكابل بالإضافة إلى ولاية البنجاب بالهند .

وعلى هذا الوضع توفي خسروشاه في رجب / جويلية سنة 555 / 1160 فتولى بعده إبنه خسروملك ، وسارت المملكة في عهده إلى الانتقاص شيئا فشيئا ، فقد استولى الغزّ (الاتراك) على غزنة وما يتبعها من أراضي الأفغان ، وكان قد استفحل أمرهم في الجهة الشرقية من بلاد فارس . كما استولى الغوريون (شهاب الدين) على بقية مملكة الغزنويين فانتقل خسروملك إلى الهند ، وجعل عاصمته لاهور ، وتابعه الغوريون فاستسلم لهم سنة 583/1187 . ثم حبس في قلعة غرجستان حيث قتل هو وأبناؤه — كما هو المظنون — عندما أحس الغوريون بخطر « الخوارزم مشاهية » يهدد كيانهم (2) .

وهكذا كان « خسرو ملك » ثامن عشر ملوك هذه الدولة التي حكمت شرقي بلاد فارس ابتداء من خراسان وأراضي بلاد السند . ودامت مدّة حكمها قرنين وخمس عشرة سنة تقريبا .

---

(1) انظر : دائرة المعارف الاسلامية : 4 ، 255 . (مادة : بهرام شاه ، بقلم : S. Hillelson) وكذلك Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 382 — 83 .

(2) انظر : Enc. de l'islam T, II, P 1077 (Art. Ghaznawides, par B. Spluler)

من هم الغـزّ ؟

يبدو أنه من الضروري أن لا يقع تجاهل هذه القبائل البدائية،التي كان لها دور لا يقل خطورة عن دور تلكم الدول،التي تعاصرت في هذه الحقبة من تاريخ بلاد فارس .

فقد ذكرهم ابن الأثير في غيرما موضع ،وأطال الحديث عنهم في موضعين بالخصوص : في أحداث سنة 548 (1) ثم عاد للحديث عنهم سنة 553 (2) وباستعراض ما كتبه عنهم يتبين ما كانت عليه هذه القبائل البدوية الكثيرة العدد من حبّ للسطو وكره للنظام . وقد كان لهم أثر بعيد ويد طولى فيما سجله التاريخ لهذه الحقبة من قلاقل واضطرابات،افسدت الحياة وعاثت بالقيم .

والغريب أن الأصل الأصيل لهؤلاء الأتراك الغز بقي مجهولا،وذلك راجع – حسبما يبدو – إلى اختلاف المصادر الصينية والعربية والبيزنطية في تسميتهم (3) . وكل ما هو معروف انهم قبل اسلامهم كانوا من القبائل التركية الكافرة .

وفي القرن الرابع / العاشر كانوا يحتلون منطقة محدودة جنوبا ببحر ارال اسفل مجرى سيردريا،وغربا بنهر اورال وبحر قزوين،ومن جهة الشمال الشرقي باعلى مجرى نهر ايرتيش . وكانت تجاورهم قبائل تركية أخرى مثل القيماق والقيجاق والخزر وغيرهم،وكانت تستهويهم المراعي الخصبة لأنها تعتبر مصدر ثروتهم الحيوانية .

وكانوا على ديانات مختلفة منها : البوذية والمنوية والمسيحية النسطورية واليهودية الخزرية (4) ، وفي اخر هذا القرن أسلم بعضهم وبالأخص الغز

(1) ابن الأثير : 11 ، 176 – 183 .
(2) ابن الأثير : 11 ، 230 – 233 .
(3) Enc. de l'islam T. II. p. 1132 (Art. GHUZZ par C.L. Cahen)
(4) نفس المرجع : ص 1133 .

حتى أطردهم «القره خطاي» عند غزوهم لأراضي «القره خانية» بما في ذلك أراضي ما وراء النّهر (1) فنزحوا إلى خراسان حول مدينة بلخ ، ولكن أوضاعهم البدوية كانت تتنافى مع كل نظام ولذلك حاول سنجر اخضاعهم واجلاءهم بالقوة فلم يوفق،وبالرجوع إلى ما كتبه ابن الأثير عن أعمالهم من نهب وتقتيل للأبرياء والعلماء يقضي الإنسان أشد العجب،والانكى من هذا أن هؤلاء الأتراك قد انتشر خطرهم في كل العالم الاسلامي،فنجد أقواما منهم يسيرون من مصر بقيادة قراقوش (مملوك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين الأيوبي) إلى طرابلس بإفريقية ثم إلى قابس وما حولها فيستولون عليها وينهبون ويقتلون الأبرياء (2) كدابهم تماما ببلاد فارس .

ولم تكن مصارعة هؤلاء الغز مقصورة على الغزنويين ولا على السلاجقة، فقد كان الصراع سجالا بينهم وبين كل الدول التي عاصروها مثل الغوريين والخوارزميين،وان كانت تربطهم بهم – فيما يبدو – أواصر القرابة في الجنس .

ولم يتوقف بهم السير عند بلخ ولا عند مدن خراسان ، فقد استولوا أيضا على كرمان (في جنوب بلاد فاس) تحت ضغط الخوارزميين ففر أميرها دينار واستولوا عليها وهي يومئذ تحت حكم سلاجقة كرمان .

ج) الدولة السلجوقية

الفترة التي تهم من تاريخ هذه الدولة هي الفترة الواقعة بين سنتي : 513 / 1117 و 590 / 1193 .

وهي مدة ولاية سنجر بن ملكشاه وجلوسه على عرش السلاجقة العظام من سنة 513 / 1117 إلى سنة : 552 / 1157 – وولاية التسعة من سلاجقة العراق وأولهم : محمود بن محمد بن ملكشاه ، واخرهم : طغرلبك بن أرسلان شاه وذلك من سنة : 511 / 1118 إلى سنة : 590 / 1194 .

---

(1) ابن الأثير : 11 ، 81 – 86 .
(2) ابن الأثير : 11 ، 389 .

لقد كون السلاجقة (1) امبراطورية عظيمة استولت على أغلب مناطق الشرق الاسلامي : فالسلاجقة العظام في بلاد العجم : فارس وخراسان — وسلاجقة العراق على العراقيين العربي والعجمي — وسلاجقة كرمان على منطقة كرمان (الجنوب الشرقي لبلاد العجم) — وسلاجقة الشام على قسم هام من بلاد الشام — وأخيرا سلاجقة الروم على اسيا الصغرى (2)

وإذا كان المقام لا يسمح بالتحدث عن أجزاء هذه الامبراطورية السلجوقية وعن الفروع التي استولت عليها بالتفصيل، فلا بد من الوقوف عند السلاجقة العظام أو بالأحرى عند اخر ملوكهم (سنجر) ومن عاصره أو جاء بعده من سلاجقة العراق، لأن حياة هؤلاء أشد اتصالا بما تعلق الغرض بتوضيحه ، أعني بذلك عصر الرازى .

تنسب العائلة السلجوقية إلى أحد أمراء الترك « سلجوق » الذي دخل بلاد الإسلام هو وعشيرته ، وسلجوق هذا ابن دقاق من قبيلة «غُزّ قَنَق» وبناء على هذا فإن الصراع الذي دار بين قبائل الغزّ البدوية ، وبين سواهم من السلاجقة والغوريين ، انما هو صراع بين أبناء الأعمام ، بعضهم أخذ بطرف من حياة الحضارة وترف القصور ، وبعضهم بقي على هيئة حياة الرعيان البدائية .

لقد قامت الدولة السلجوقية ، على انقاض دولة بني بويه ، وكان اخرهم أمير الأمراء الملك الرحيم ، الذي حسبه طغرلبك بن ميكائيل السلجوقي ، سنة 447 / 1055 : وصيّر الخطبة لنفسه ، وقد عرفت هذه الدولة منذ نشأتها بالقوة والحزم والشدّة في معالجة الأمور .

وقد بلغت أوج عزها ، في مدة ثاني ملوكها الب أرسلان ، الذي اشتهر بما قام به وزيره نظام الملك ، كما اشتهر بأعمال هذا الوزير ملك شاه بن ال ارسلان ، الذي تولى بعد أبيه الب أرسلان .

---

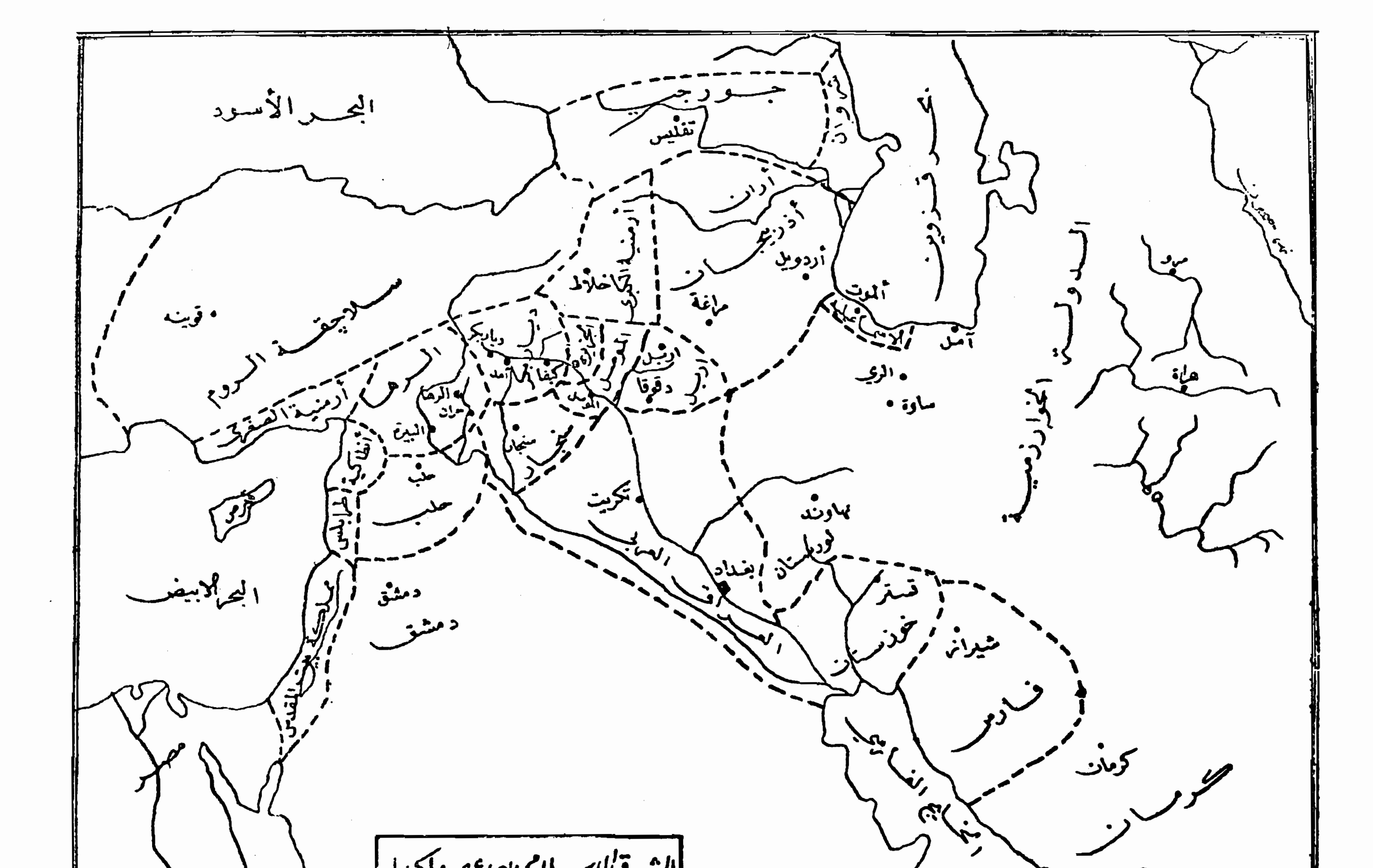
(1) دائرة المعارف الاسلامية : 12 ، 24 . (مادة : السلاجقة)
(2) انظر : خريطة العالم الاسلامى في القرن السادس الهجري ، الآتية .

وتعتبر وفاة ملكشاه ، نهاية لتماسك القوة الإسلامية عامة وقوة الدولة السلجوقية خاصة ، (1) والسبب في ذلك شدة الصراع ، الذي نشب بين أبناء ملكشاه الاربعة ، على وراثة ملك السلاجقة ، أضف إلى ذلك ، الغارات المتتالية التي قام بها بعض أمراء المقاطعات الثائرين ، اذ يوجد إلى جانب السلاجقة العظام ، بيوت ملكية أخرى تنازعهم النفوذ في بلاد العجم ، من هذه البيوت « ملوك الغور » ، الذين ورثوا الغزنويين في ولايتهم ، ومنها ملوك خوارزم أو « حكام خيوة » الذين أصبحوا أشد الخصوم للسلاجقة ، منذ تولى أتسز سنة 521 / 1127 ، ومنها سلاجقة كرمان الذين استبدّوا بالسلطة في الجهات الجنوبية الغربية من إيران ، ومع كلّ هذه النزاعات على الحكم ، فقد منيت البلاد بفجائع غريبة ، من تخريب ونهب فظيعين ، بسبب غارات الأتراك الغزّ ، هذا من جهة ومن جهة أخرى : الفتن والاغتيالات المروّعة ، التي لا تقل ترويعا عن الحروب ، وأعني بذلك خطر الاسماعيلية أو « ملاحدة الموت » ، الذين انتشروا في سائر الانحاء ، فنشروا الرعب والفزع في كلّ مكان ولم تجد مقاومتهم من الحكام والمحكومين ، ولم يقف أمرهم عند بلاد العجم ، فقد تسربوا إلى الشام وإلى مصر وغيرهما .

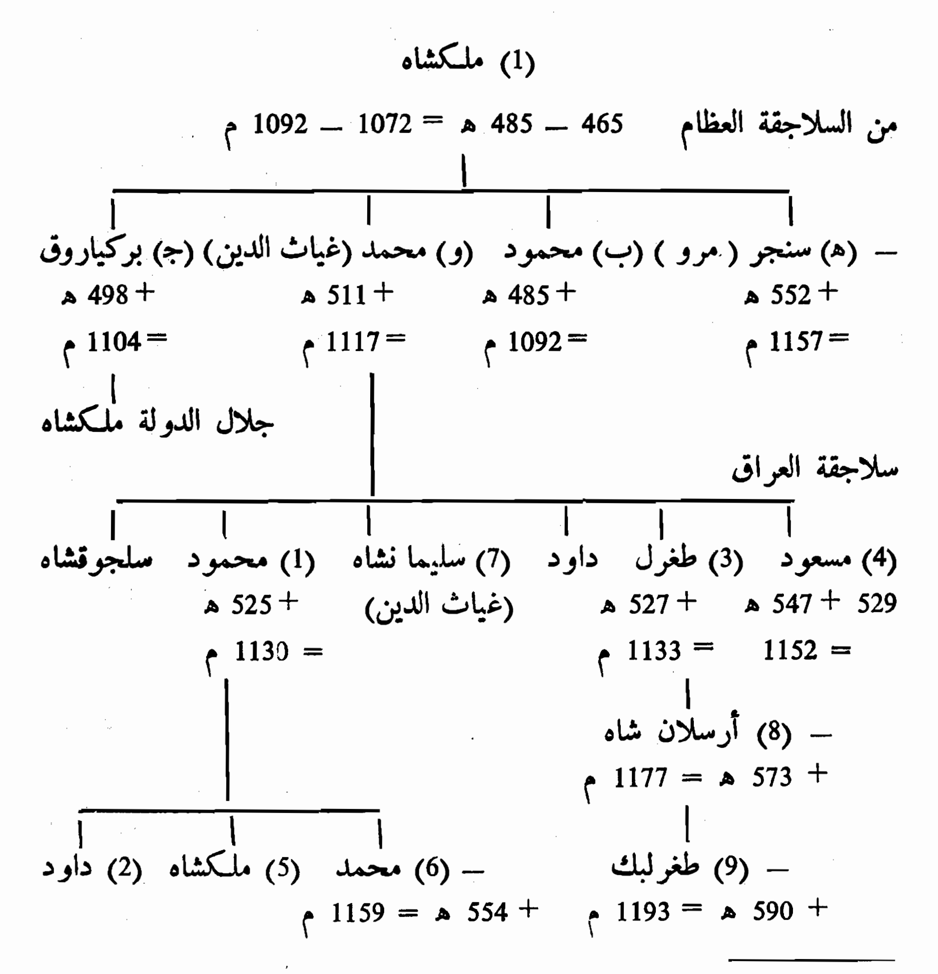
ورغم ما صارت إليه البلاد — وكأنها مرجل اشتد غليانه — فقد احتفظ السلاجقة بسلطتهم في فارس وخراسان ، في عهد سنجر ، الذي عدّ موته نهاية لحكم ال سلجوق فيهما .

أما سلاجقة العراق ، فقد احتفظوا بالسلطة أبعد من هذا التاريخ ، وان اعتبر أن اخر عهد سطوتهم ، ينتهي بوفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (2) (529 / 1134 — 547 / 1152) ، وان من جاء بعده من السلاطين كانوا على جانب من هذا الوهن والضعف إلى مقتل اخرهم ، وهو : طغرلبك بن ارسلان شاه (573 / 1177 — 590 / 1193) ، في الحرب التي قامت بينه وبين علاء الدين تكش الخوارزمي (3) ، قريبا من الريّ .

(1) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 372 . انظر خريطة الشرق الاسلامي بعد عصر ملكشاه . (فيما يلي)
(2) المقريزي ، كتاب السلوك : 1 ، (1) ، 38
(3) انظر : ثبت سلاطين السلاجقة في العراق وفارس (فيما يلي) وابن الاثير ، الكامل : 12 ، 107 — 108 .


البحر الأسود
جورجيا
تفليس
أران
أذربيجان
أردويل
ماغة
خلاط
أرمينية الكبرى
قونيه
سلاجقة الروم
أرمينية الصغرى
الرها
ديار بكر
آمد
حران
البيرة
أنطاكية
طرابلس
حلب
سنجار
الموصل
إربل
دقوقا
تكريت
بغداد
نهاوند
لورستان
العراق
تستر
خوزستان
شيراز
فارس
كرمان
الموت
آمل
الري
ساوة
بحر قزوين
الدولة الخوارزمية
مرو
هراة
البحر الابيض
دمشق
مملكة بيت المقدس
مصر
الخليج الفارسي

سلاطين السلاجقة في العراق وفارس (*)



(*) تشير علامة (+) إلى السنة التي توفي فيها السلطان السلجوقي ، ومما هو جدير بالملاحظة أن حواضر سلاطين السلاجقة كانت تختلف من سلطان لآخر ، فمثلا اتخذ طغرلبك الأول مدينة نيسابور حاضرة له ، واتخذ ألب أرسلان مدينة مرو ، بينما حكم ملكشاه وأبناؤه ، محمود وبركياروق ومحمد في أصفهان ؛ أما سنجر فقد اتخذ من مدينة مرو ، كبرى مدن خراسان ، حاضرة له ، انظر Sanaullah : The Decline of the Saljuiqid Empire, p. 39 . وقد ذكر دوسون أن ملكشاه اتخذ من مدينة مرو حاضرة له وربما كان ذلك في بداية عهده ، أي عقب وفاة أبيه ألب أرسلان الذي كان يقيم في هذه المدينة : D'ohsson : Histoire des Mongols Tom. I p. 279.

يعتبر سنجر اطول ملوك السلاجقة عمرا في الحكم ، اذ أنه حكم خراسان قرابة الاربع والعشرين سنة ، كما تولى ملك السلاجقة طيلة أربعين سنة تقريبا .

ومما يذكر له في ولايته على خراسان ، أنه استطاع أن يجنب هذه المنطقة كثيرا من الولايات ، التي نجمت عن الحروب الطاحنة والمتتابعة ، بسبب تنازع أخوته على الملك ، وإن فشل تجنيبها ويلات الغارات ، التي شنها الأتراك الغزّ .

تولى سنجر على خراسان ، بعد أن استتبّ الأمر لأخيه « بركيارق » ملكا للسلاجقة العظام ، وذلك في خريف سنة 487 / 1094 . وبعد ثلاث سنوات من ولايته ، عين أخاه سنجر اعني سنة 490/ 1096 واليا على خراسان ولم يبلغ من العمر إلا احدى عشرة سنة .

وما كان الأمر ليستتبّ لبركيارق ، الا بعد صراع عنيف ، جرى بينه وبين أخيه للاب : محمود بن ملكشاه : ولم يكن المحرك لهذا الصراع في الحقيقة سوى أمّ محمود « تركان خاتون » ، التي كانت تتصرّف باسم ولدها الصغير ، وانتهت نار هذه الفتنة بموت ابنها ثم بموتها .

وبعد موت أخيه وزوجة أبيه « تركان خاتون » ، التفت بركيارق إلى اثنين من أعمامه فقتلهما ، احدهما « تتش » الذي كان قد ناصرعليه أخاه محمودا ، وثانيهما « ارسلان أرغون » الذي خرج عليه هو أيضا ، وكان بمدينة مرو .

بعد هذه القلاقل كلها ، وبعد أن نجا « بركيارق » من محاولة اغتياله ، من طرف أحد ملاحدة « ألموت » (1) من الإسماعيلية ، خلصت له خراسان فولى عليها أخاه سنجر، وذهب إلى العراق .

---

(1) هي قلعة حصينة في أعلى جبل وحولها وهاد لا يبلغها المنجنيق والنشاب تقع في ناحية « روذبار » بين قزوين (المدينة) وبحر قزوين (أو الخزر) وهي كرسي ملك الاسماعيلية أنظر : القزويني ص 301 فقد أخذ عنه البستاني (دائرة المعارف) : 4 ، 321 .

وبعد ثلاث سنوات أي في سنة 493 / 1099 ، ثار محمد بن ملكشاه الملقب بغياث الدين على بركيارق ، كأعنف ما تكون الثورة ، وتواصلت الحروب بينهما طيلة أربع سنوات تقريبا ، إلى سنة 497 / 1103 ارتكب فيها من الفضائع ما يعسر عدّه ،

وسجلت فيها خمس معارك حامية آلت إلى اتفاق الأخوين على الهدنة وذلك قبل موت بركيارق بسنة أو سنتين (1) .

ومن أبشع هذه الفظائع التي ارتكبت في هذا الصراع بين الأخوين :

خنق أم بركيارق « زبيدة » وهي في الثالثة والأربعين من عمرها ، وقتل وزير بركيارق « مجد الملك القمي » بتمزيقه وتعذيبه حتى لفظ روحه ، وسمل عني الطفل الصغير (في الخامسة من عمره) وهو ملكشاه الثاني ابن بركيارق ، بعد أشهر من توليته الملك .

على مثل هذه الفجائع ختمت حياة بركيارق ، وفي جوها تقلّد غياث الدين محمد بن ملكشاه منصب الملك ، من سنة 499 / 1105 إلى سنة 512 / 1118 . وأهم ما يسجل ، في مدّته ، انه عمل بحزم على مقاومة الحشاسين من الاسماعيلية كما أنه تغلّب على أمير الحلة العربي « صدقة بن مزيد » وذلك سنة 502 / 1108 . وفيما ما عدا ذلك فقد عرفت مدّته بشيء من الهدوء .

ولما توفي ، خلفه ابنه محمود ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، ولم تدم مدّته طويلا في ملك السلاجقة العظام ، حتى خلعه عمّه سنجر بعد أن هزمه في ساوه سنة 513 / 1119 . وبعد أن قبل شفاعة أمه فيه ، نصّبه واليا على العراق ، ثم زوجه من ابنته « ماه ملك خاتون » ، ودامت ولايته على العراق قرابة الاربع عشرة سنة . فكان أول ملوك سلاجقة العراق من نسل ملكشاه .

(1) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 377 .

وفي جمادى I / سبتمبر 513 / 1119، أعلن في بغداد عن تنصيب سنجر، ملكا على عرش السلاجقة . وقد اعتبر حكمه على العموم موفقا ناجحا، الا في الأيام الأخيرة من حياته (1) .

والواقع أن سنجر وقع بين عدوّين شديدين ، باجتماعهما عليه أمكنهما أن يخضّدا من قوته ، هذان العدوان في الدرجة الاولى هما : دولة الخطا ، من الأتراك الكفار (في الشمال الشرقي لبلاد العجم) ، والدولة الخوارزمية الناشئة ، التي تتوق إلى الاستقلال عن السلاجقة ، وإلى العظمة على حسابهم إن لزم الأمر .

مات قطب الدين محمد (الخوارزمي) ، ولم يشهق عصا الطاعة في وجه سنجر ، ثم تولى من بعده على خوارزم ابنه : اتسز ، فأحس منه سنجر بوادر خلع الطاعة ، والطموح إلى العظمة والاستقلال عن سلطة السلاجقة ، فسار إليه سنجر محاربا سنة 533 / 1138 . فهزم اتسز بجيوشه الناشئة ، وقتل ابنه في هذه الموقعة ، كما قتل عدد من أتباعه ، وتفرق عنه الباقون ، واستولى سنجر على خوارزم وجعل عليها من قبله : سليمان شاه (غياث الدين) وهو ابن أخيه محمد ، وعيّن له وزيرا واتابكا وحاجبا ، وعاد إلى مرو (عاصمة ملكه) . ولكن اتسز لم يستسلم نهائيا للهزيمة بل عاد بجيشه إلى خوارزم ، بعد أن غادرها سنجر ، وأطرد غياث الدين سليمان شاه . وقد ساعده على ذلك كراهية أهل خوارزم لعسكر سنجر ، (2) وقلّة عدد هذا العسكر عند غياث الدين بخوارزم ، واستعاد اتسز خوارزم بإعانة أهلها ، وبذلك ازدادت العلاقات سوءا بين اتسز وسنجر . وقد أفضى هذا الوضع المتوتّر بين الغريمين ، باتسز ، إلى ارتكاب ما لا يحمد في موازين العقلاء ، ذلك أنه بدافع الحقد والخوف مجتمعين ، ارتمى بين أحضان دولة الخطا ، فصاهرهم (تزوج منهم) ، وأغراهم بمملكة سنجر . وكان هؤلاء الخطا قد استولوا على منطقة ما وراء النهر (3) ،

(1) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 378 .
(2) ابن الاثير : 11 ، 67 .
(3) ابن الاثير : 11 ، 81 .

فتجهز الخطا في جيش عظيم (1) ، والتقوا بجيوش سنجر ، فكان القتال شديدا ، آل إلى انهزام سنجر ، وقتل عدد كبير من جيوشه ، (يذكر ابن الأثير : 100 ألف قتيل من بينهم 11 ألف كلهم صاحب عمامة ، و 4 الاف امرأة) وقد مني سنجر في هذه الموقعة – زيادة على الهزيمة – بتاسير زوجته ، ففرّ إلى ترمذ ، ثم إلى بلخ وكان ذلك سنة 536 / 1141 .

وفعلا حصل ما كان يرقبه اتسز ، فأعلن استقلاله في خوارزم ، ولم يكتف بهذا بل سار إلى خراسان : سرخس ، ثم مرو ، فأنزل بأهلها من الإرهاب والتقتيل ما شاء ، ثم نيسابور حيث استولى على أموال سنجر وحملها معه ، وقطع الخطبة بها لسنجر وجعلها لنفسه ، ثم إلى بيهق حيث قاتل أهلها طيلة خمسة أيام (2) وقد قتل في هذه الحملة عدد كبير من أهل العلم والفضل . ودامت خراسان تحت حكم الخوارزميين سنتين ، أعني إلى سنة 538 / 1143 .

وفي هذه السنة عاد سنجر لمحاصرة خوارزم ، وقد اعتصم بها اتسز ، وأدى الأمر إلى عقد صلح بينهما ، ردّ بمقتضاه اتسز ما نهبه من أموال سنجر مع الوعد بالعودة إلى الطاعة والانقياد . وعلى ذلك عاد سنجر إلى مرو وأقام أتسز في خوارزم (3) .

فهذا التراجع الواضح في موقف اتسز ، يمكن أن تستفاد منه اشياء منها : شعور اتسز أن قوته لم تبلغ – رغم كل شيء – قوة خصمه سنجر مع أنه لا يمكنه أن يعتمد باستمرار على قوة الخطا ، الذين بانت له مطامعهم في بلاد الاسلام ، ومنها بقاء الخوف من سنجر ، مسيطرا على اتسز ، إلى درجة أنه لم يجرؤ على فتح صناديق الأموال التي اغتصبها من مرو ، وأعادها لصاحبها بختمها (4) .

---

(1) نفس المصدر .
(2) ابن الاثير : 11 ، 87 – 88 .
(3) ابن الاثير : 11 ، 95 – 96 .
(4) البنداري : ص 257 .

ولعل عدم الاطمئنان إلى عواقب سياسته ، إزاء الدولة السلجوقية ، هي التي دفعت باتسز إلى الرضى بالصلح ولو إلى حين . على أن الصراع بين الرجلين لم يتوقف بل استمرّ إلى اخر حياتهما .

هذا ما جرى بإجمال بين سنجر من جهة ، وبين عدويه الشديدين : أتسز والخطا من جهة أخرى .

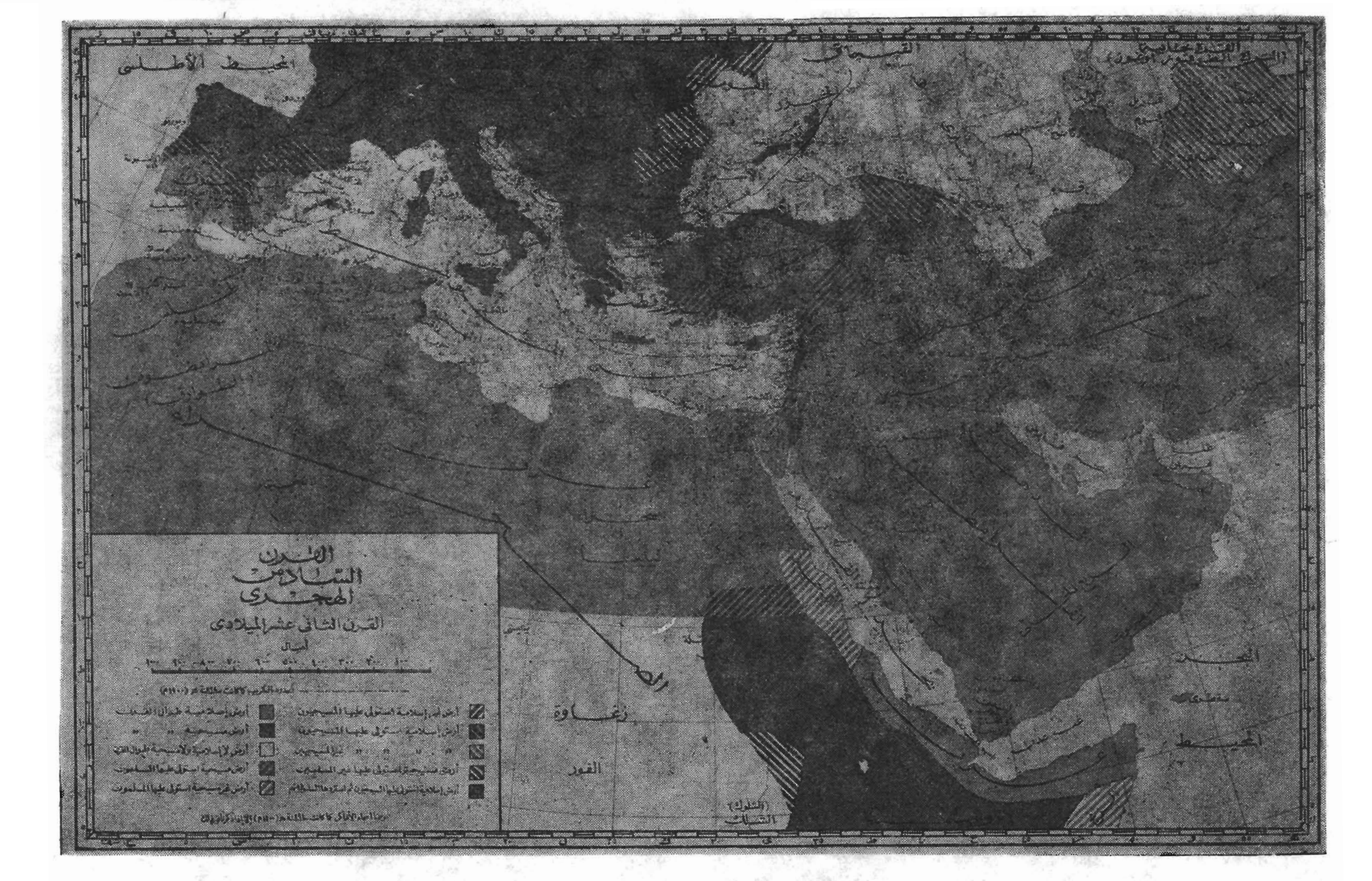
على أن سنجر — في مدّة ملكه الطويلة هذه — قد التفت إلى جانبين اخرين ، سلفت الاشارة إليهما (1) هما : جانب الغزنويين ، وجانب الأتراك الغزّ .

أما الغزنويون ، فقد سلفت الاشارة ، الى الدور الذي لعبه سنجر ، في مناصرة بهرام شاه بن مسعود الثالث (الغزنوي) ، حتى يخلص له الملك دون أخويه . ثم ما قام به سنجر من تأديبه ، عندما حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة ، وذلك ما قام به من مواجهة عدوان الغوريين ضدّ بهرام شاه ، وخصوصا عدوان علاء الدين حسين (محرق العالم) على غزنة .

وفي خصوص الأتراك الغز ، فقد تسربوا إلى خراسان ، منذ استولت دولة الخطا على بلاد ما وراء النهر ، فطمعوا في خصوبة مراعي خراسان ، واكتسحوها دون أن تستطيع جيوش سنجر ردّهم ، أو التغلب عليهم ، ورغم محاولات سنجر المتكررة للقضاء عليهم ، فقد هزموه سنة 548 / 1153 . ونهبوا مدن خراسان ، وقتلوا الأبرياء والعلماء ، وخربوا المدارس ، واسترقوا النساء والأطفال (2) ، وأسّروا سنجر نفسه ، وجماعة من الأمراء فقتلوهم ، وحاولوا أن يجعلوا من سنجر ملكا عليهم ، ليثبت لهم الحق في البقاء بخراسان ، فلم يطاوعهم سنجر ، ولم يقبل أن يجعل أميرهم « بختيار » حاكما على مرو . ولم يفلت سنجر من أسرهم إلا سنة 551 / 1156 (3) .

---

(1) انظر ما تقدم عند الحديث على الدولة الغزنوية .
(2) ابن الاثير : 11 ، 176 — 177 .
(3) ابن الاثير : 11 ، 210 .


القرن
السادس
الهجرى
القرن الثانى عشر الميلادى
أميال
المحيط الأطلسى
زغاوة
الفور
الهند
المحيط

وكانت قد قاست مدن خراسان من نهبهم ، واعتداءاتهم ، ما جعل ابن الأثير يخصّص له عدة صفحات ، من الجزء الحادي عشر من كامله مما لا مجال لنقله هنا .

ومات سنجر سنة 552 / 1157 بمرو ، ودفن بها مع عمه الب أرسلان ، قبل أن يتمكن من الأخذ بالثأر من الغزّ . (1)

د – الدولة الغورية

نعني – من تاريخ هذه الدولة – الفترة التي بين سنة 544 / 1149 وسنة 612 / 1215 وقد تولى الحكم فيها على التعاقب السلاطين : بهاء الدين سام – علاء الدين حسين – سيف الدين محمد – غياث الدين محمد – معز الدين محمد – غياث الدين محمود – بهاء الدين سام – علاء الدين اتسز – علاء الدين محمد .

استولت العائلة الغورية (الشنسانية) ، التركية الأصل : على الأراضي الشرقية من البلاد الايرانية ، ومارست سلطتها المستقلة في القرن السادس / الثاني عشر ، وكذلك في السنوات الاولى من القرن الموالي .

وصارت تعرف مملكتهم ببلاد الغور (أفغانستان الوسطى اليوم) ، وكانت عاصمتها فيروزكوه (بمعنى الجبل الأزرق) ، وهي قلعة عظيمة حصينة في جبال غورشستان ، بين هراة وغزنة (2)

تولي بهاء الدين سام (تاسع سلاطين الغوريين) بعد أخيه : سيف الدين سوري وذلك سنة 544 / 1149 . وبعد أن حصن عاصمته : فيروزكوه ، اتجه بجيشه نحو غزنة (عاصمة الغزنويين) ، لينتقم من بهرام شاه (الغزنوي) الذي قتل أخويه (3) ولكنه مات في الطريق في نفس السنة (4) .

---

(1) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 380 .
(2) ياقوت : 6 ، 411 .
(3) انظر ما تقدم في الدولة الغزنوية .
(4) Enc. de l'islam, Tome II, P. 1126. (Art. Ghurides, par Bosworth)

وتولى بعده أخوه علاد الدين حسين ، فجعل في مقدمة مهامه الأكيدة أمرين : احدهما ما أقعد الموت أخاه عنه ، وهو الانتقام للأخوين المقتولين . وثانيهما الحد من النفوذ الغزنوي في المنطقة . وفعلا سار علاء الدين نحو غزنة بعساكره ، فاستطاع أن يهزم بهرام شاه ، رغم قوته ، ورغم فيلته ، وفر بهرام شاه إلى الهند ، وترك رعاياه في أيدي عساكر الغور ينزلون بهم جام غضبهم ، وكانت وقعة غزنة الشهيرة ، التي فيها دمرت المدينة وأحرقت ، ونهب السكان وقتلوا ، وبسببها اشتهر علاء الدين حسين وأصبح يطلق عليه « جهان سوز » = محرق العالم ، وكان ذلك سنة 545 / 1150 (1) .

وفي سنة 547 / 1152 شق علاء الدين عصا الطاعة في وجه سنجر (السلجوقي) ، وأمسك عن دفع الاتاوات ، كما أعان على قيام الثورة ضدّ السلاجقة بهراة ، فحاربه سنجر ، وكانت الهزيمة على علاء الدين حسين ، وتفرقت عليه جيوشه من الترك : الغز والقلج ، فالتحقوا بمواطنيهم من عساكر سنجر ، وأسر علاء الدين وحبس بخراسان .

ولم يفتّ ذلك في ساعد علاء الدين ، فقد عمل منذ خلاصه ، وفي باقي أيام حياته ، على تعزيز ملكه ، ورد المناوئين له من أفراد العائلة الغورية ، كما واصل حملاته التوسعية على عدة جهات منها : غرجستان ، ومرغاب ، وجهات باميان وطخرستان ، وزميندوار ، وبست . وكذلك تواصلت حملاته إلى وفاته سنة 556 / 1161 .

وتبعا لهذه السياسة التوسعية ، التي سلكها علاء الدين ووفق فيها إلى حد كبير ، اتسعت مملكة الغور ، وصارت دولتهم قوة عظيمة ، في الجزء الشرقي من العالم الاسلامي . وقد ساعد على نجاح هذه السياسة التوسعية عاملان هامان : افول السلطة الغزنوية شيئا فشيئا وانشغال السلاجقة (سنجر) بمقاومة الأتراك الغز ، الذين قهروه وأسروه ما يزيد عن العامين .

---

(1) انظر : ابن الاثير : 11 ، 165 . فقد ذكرها في حوادث سنة : 547 . وانظر كذلك صفحة : 13 – 14 . فقد وقعت الاشارة فيها الى اختلاف المصادر في تاريخ وقوع هذه الأحداث .

وقد نتج عن اتساع مملكة الغوريين على حساب جيرانهم (الغزنويين والسلاجقة) ، تقسيم هذه المملكة إلى ثلاثة أقسام ، استمرت إلى انقراض دولتهم :

1) الفرع الكبير : وهو الذي انتصب في بلاد الغور ، وعاصمته « فيروزكوه » . ويسعى إلى بسط نفوذ الدولة على جهة خراسان

2) فرع غزنة : انتصب فيها عندما تم الاستيلاء عليها نهائيا سنة 569 / 1173 . وكان الانطلاق منها للاستيلاء على أراضي بلاد الهند :

3) فرع باميان : وقد نصب فيه علاء الدين حسين أخاه فخر الدين مسعود ، الذي شملت منطقته : طخرستان ، وبدَخشان وشغبان ، إلى اكسس (Oxus) وقد توالى على هذا الفرع أربعة من ملوك الغور ، هم : بالاضافة إلى فخر الدين مسعود ، ابنه : شمس الدين محمد ، ثم ابنه : بهاء الدين سام ، ثم اخرهم ابنه : جلال الدين علي

ولما مات علاء الدين حسين ، تولى بعده على « فيروزكوه » ابنه : سيف الدين محمد فأطاعه الناس وأحبوه ، وأهم أعماله أنه قضى على دعاة الاسماعيلية وأتباعهم ، وكانوا قد تسربوا إلى البلاد . (1)

وقتل سيف الدولة محمد وهو في العشرين من عمره تقريبا ، بايدي بعض الأتراك الغزّ (2) وكان ذلك في سنة 558 / 1163 . ويبدو أن سبب قتله يعود إلى عملية انتقام دبرها أخو القائد « ورمش » الذي قتله سيف الدين محمد بسبب خيانته ، و « ورمش » وأخوه المنتقم كلاهما من الغز (الشيث Shith) ، وسيف الدين المقتول من الغز (السنشبان Shansaban) ويرجع الجوزجاني هذا الخلاف بين العائلتين إلى عهد الخلفاء الأوائل من بني العباس . (3)

---

(1) ابن الأثير : 11 ، 271 .
(2) ابن الأثير : 11 ، 293 – 294 .
(3) انظر : Enc de l'Islam Tome : II, P. 1127 . (Art. Ghurides)

بعد موت سيف الدين محمد ال الحكم إلى ابني عمه :

1) غياث الدين محمد بالغور (من سنة 558 / 1163 إلى سنة 599 / 1203)

2) معز الدين محمد بغزنة (من سنة 569 / 1173 إلى سنة 602 / 1206)

ومما تجدر ملاحظته ، أن الدولة الغورية قد بلغت أوجها من القوة ، بفضل تعاون هذين الأخوين ، وتضامنها ، هذا التضامن الذى لم يعرف له نظير في مثل هذا العصر . فقد اهتم الأخ الأول ببسط نفوذ دولته على الجهات الغربية المتاخمة لبلاده ، وفي ذلك شل لحركة التوسع الخوارزمي في بلاد خراسان . واهتم الثاني بمقاومة الغز ، وبالاستيلاء على شمال بلاد الهند ، مواصلا بذلك عمل من سبقه من الغزنويّين .

ولقد استطاع هؤلاء الغوريون ، أن ينازعوا الخوارزميين السلطة العليا في المنطقة بفضل الظروف المواتية ، التي ساعدتهم ، فهم أكثر حرية في العمل والتصرف . ويرجع هذا إلى استقلالهم بالحكم ، في حين أن الخوارزميين ، يعتبرون مقيدين بشبه تبعية لدولة القره خطاى (أو الخطا) ، التي أعانتهم على بسط شيء من نفوذهم ، ونصرتهم على الكثير من أعدائهم .

ومما قام به الغوريون – بدافع الخوف من التوسع الخوارزمي – انهم ربطوا العلاقات مع الخلافة العباسية في بغداد ، وقد توالت السفارات بين « فيروزكوه » وعليها غياث الدين محمد ، وبين بغداد ، والخليفة حينئذ هو الناصر العباسي . وقد حرض الناصر غيرما مرة الغوريين ، على الوقوف في وجه التوسع الخوارزمي بفارس .

وقد حارب الاخوان الغوريان – تنفيذا لخططهم المسطرة – فخر الدين (حاكم باميان) ، الذى طمع في بلادهم ، كما حاربا الحاكم التركي على هراة (تاج الدين ايلدز) وحاكم بلخ (علاء الدين قمش) ، وانتصرا عليهم .

ثم غزا غياث الدين مناطق رميندوار ، وبذغس ، وغرجستان وأضافها إلى مملكته . كما بسط نفوذه على سيستان ، تحت حكم الأمير الصفرى (تاج الدين حرب) ، وعلى كرمان ، وذلك أن حاكم الغز بها الذى تنكر لسلطة السلاجقة بعث إلى فيروزكوه ، يطلب المهادنة ويدين بالطاعة .

وعندما غادر اخر الغزنويين غزنة وفر إلى لاهور ، استولى المحاربون الغز على عاصمته طيلة 12 سنة اعني إلى سنة 569 / 1173 وعندها طردهم غياث الدين محمد ، ونصب عليها أخاه : معز الدين ولقبه بلقب سلطان (1) .

ومما ساعد الغوريين على حركتهم التوسعية ، ما هو جار بين ملوك الخوارزميين من الصراع والتناحر على السلطة ، وقد مس هذا النزاع بمملكة الغوريين ، ذلك أن السلطان شاه محمود الخوارزمي الذى أطرده أخوه علاء الدين تكش من خوارزم 568 / 1172 ، استنصر بالخطا ، واقتطع لنفسه امارة بخراسان ، وعندها حاول أن يفتك هراة وبدغيس ، ولكن غياث الدين انتصر عليه في سنة 586 / 1190 (2) قرب مرو ، وأسره واستولى على ممتلكاته بخراسان .

وفي أفغانستان الشمالية ، استولى بهاء الدين سام الغورى (من فرع باميان – وثالث ملوك هذا الفرع) على بلخ ، بعد موت حاكمها التركي (التابع للقره خطاي) ، وذلك سنة 594 / 1198 . (3)

وفي نفس هذه السنة اشتعلت نار الحرب بخراسان ، بين الغوريين الذين حرضهم الخليفة العباسي الناصر ، وبين جيوش الخطا ، بتحريض علاء الدين تكش ، الذي اتجه بدوره نحو هراة ، وكانت الغلبة في النهاية للغوريين ، رغم عدد القتلى ، ورغم ما قام به جيش الخطا من تقتيل وأسر

---

(1) نفس المرجع .
(2) ابن الأثير : 12 ، 58 .
(3) ابن الأثير : 12 ، 134 .

ونهب (1) ، وبموت علاء الدين تكش (الخوارزمي) ، استولى غياث الدين محمد سنة 596 / 1200 على جل مدن خراسان (2) (مرو — سرخس — نيسابور) ، وجعل واليا عليها من قبله (في نيسابور) ابن عمه وصهره على ابنته : ضياء الدين محمد ، ولقبه بعلاء الدين ، ثم رحل غياث الدين إلى هراة التي مات بها سنة 599 / 1203 . (3)

وبموته خلفه أخوه معز الدين (شهاب الدين) واتبع سياسته وطريقته ، في الحكم وفي توزيع السلطة بين أفراد العائلة : كل ملك في مقاطعة ، واحتفظ لنفسه بمدينة غزنة ، وجعل على فيروزكوه ابن عمه ضياء الدين ، الذي كان واليا على خراسان .

وفي السنة الموالية ، بعد رحيل علاء الدين محمد (الخوارزمي) عن هراة ، التي كان قد حاصرها ، عاد شهاب الدين من الهند إلى خراسان ، واتجه نحو خوارزم ليحاصرها بدافع الانتقام ، فخافه شاه خوارزم وحرض عليه الخطا فهزمته (4) وضاعت خراسان بعد ذلك من أيدي الغوريين باستثناء هراة .

وفي سنة 602 / 1205 أرجأ شهاب الدين مقاتلة الخطا ، ليسير إلى بني كوكر الذين عصوا وارتدوا ، وقطعوا الطرق بالبنجاب من بلاد الهند ، فأعمل فيهم القتل وشردهم ، ثم واصل إلى لاهور ، وعاد منها ، وفي طريق عودته — ليشتغل بالخطا — غدر به بعض الكوكرية ، وقيل بعض الاسماعيلية ، لأنهم خافوا خروجه إلى خراسان ، وكان له جيش يحاصر قلاعهم (5) .

---

(1) ابن الأثير : 12 ، 135 — 137 .
(2) ابن الأثير : 12 ، 164 — 167 .
(3) ابن الأثير : 12 ، 180 .
(4) ابن الأثير : 12 ، 186 — 189.
(5) ابن الأثير : 12 ، 212 — 215 .

في السنوات العشر ، التي تبعت موت معز الدين محمد (شهاب الدين الغوري) أخذت الأمور ببلاد الغور تسير إلى الوراء ، وآل الأمر إلى سقوط مملكتهم بيد الخوارزميين ، لمدة قصيرة قبل أن يكتسح التتر البلاد الاسلامية الشرقية ، وذلك بسبب أن الجيش الغوري يتكون من قسمين : قسم المشاة وأغلبه من أهالي الغور وافغانستان ، وقسم الخيالة وأغلبه من غلمان الترك . فانقسم الجيش فريقين : فناصر الغوريون فرع باميان (بهاء الدين سام وبعد موته سنة 602 / 1205 خلفه ابناه : علاء الدين محمد وجلال الدين علي) وناصر الأتراك الخيالة ابن أخ معز الدين (شهاب الدين) الذي هو : غياث الدين محمود (وكان من اتباع الكرامية) . بدأ التدخل الخوارزمي في شؤون الغور منذ سنة 603 / 1206 . ذلك أن غياث الدين محمود (بفيروزكوه) عندما رأى تاج الدين ايلدز القائد التركي يستولى على غزنة ، ولم يقدر على ترك فيروزكوه للمسيرة إليه ، اكتفى بالاستنجاد ضده بالخوارزميين ، فاعتبر ذلك علامة على قرب نهاية مملكة الغور .

وفعلا أصبح غياث الدين محمود (1) (601 / 1205 — 609 / 1212) (2) ثم من بعده على التوالي : بهاء الدين سام ، وعلاء الدين اتسز ، وضياء الدين محمد (علاء الدين) أصبحوا جميعا ألعوبة في أيدي الخوارزميين .

وفي سنة 612 / 1215 أطاح علاء الدين محمد (الخوارزمي) باخر ملوك الغور في فيروزكوه وهو : ضياء الدين محمد ، الملقب بعلاء الدين ، مثلما تم القضاء على فرع باميان ، وفي نفس السنة (3) أطرد علاء الدين محمد (الخوارزمي) تاج الدين ايلدز من غزنة ، وبذلك خلصت بلاد الغور للخوارزميين باستثناء ممتلكاتهم ببلاد الهند .

---

(1) اعتبره ابن الأثير آخر ملوك الغورية انظر : 12 ، 266 — 267 .
(2) اعتبر ابن الأثير وفاته سنة 605 . انظر المصدر السابق .
(3) ابن الأثير : 12 ، 309 — 310 .

الغوريون

- 1 محمود بن سوري
  - 2 أبو علي
  - 3 شيث
    - 4 عباس
      - 5 محمد
        - 6 قطب الدين حسن
          - 7 عزالدين حسين
            - (1) فخر الدين مسعود (فرع باميان)
              - (2) شمس الدين محمد
                - (3) بهاء الدين سام
                  - علاء الدين محمد
                  - (4) جلال الدين علي
            - 10 علاء الدين حسين
              - 16 علاء الدين اتسز
              - 11 سيف الدين محمد
            - نصير الدين محمد
            - 9 بهاء الدين سام
              - 13 شهاب الدين (معز الدين محمد)
              - 12 شمس الدين (غياث الدين محمد)
                - 14 غياث الدين محمود
                  - 15 بهاء الدين سام
            - قطب الدين محمد
            - شجاع الدين علي
              - 17 علاء الدين (ضياء الدين محمد)
            - 8 سيف الدين سوري

هـ — الدولـة الخـوارزمية :

(في الفترة التي بين سنة 521 / 1127 وسنة 617 / 1219)
وقد تولى الحكم فيها على التعاقب : اتسز — أيل أرسلان — سلطان شاه محمود — علاء الدين تكش — علاء الدين محمد —

تعد هذه الدولة احدى الدويلات المتناحرة ، التي ارتفعت على أكتاف دويلات أخرى ، من أهمها الدولة السلجوقية . والدولتان تنتظمان في عموم القاعدة ، التي أصبحت ظاهرة بارزة في هذا العصر وهي أن الحكم في عموم الشرق الاسلامي تقريبا كان بيد الأتراك . فالبويهيون قبل السلاجقة أتراك ، ومثلهم السلاجقة أنفسهم ، ومثلهم الخوارزميون ، بل هم نابعون منهم . إذ نجد أول الخوارزميين وهو « نوشتكين » أو « انوشتكين » (كما تسميه بعض المصادر) قد كان عبدا لأحد أمراء السلاجقة : (1) يقوم بوظيفة الساقي في بلاطاتهم ، ثم أخلص في خدمة سيده ملكشاه السلجوقي ، فارتقى بسبب ذلك في سلم الوظائف ، وأحسن نوشتكين في تربية ابنه : محمد (قطب الدين) حتى اشتهر بالعلم والأدب ، فعينه بركيارق بن ملكشاه (السلجوقي) حاكما على اقليم خوارزم ، ولقبه : خوارزم شاه — وبذلك اعتبر هو المؤسس الحقيقي للدولة الخوارزمشاهية .

ثم سارت هذه الدولة تشق طريقها وتوطد نفوذها على حساب القوى الموجودة انذاك ، وهي قوى الدويلات التي قاسمتها أرض بلاد العجم ، وقد سبق إفراد بعضها بالحديث مثل الدولة الغزنوية (في أعقاب ملوكها) أو الدولة السلجوقية ، أو الدولة الغورية ، أو الأقوام الغزاة الذين لا يشكلون دولة وإنما هم قبائل وجماعات ، جعلوا لكل مجموعة منهم أميرا ، وبعضها وقع الحديث عنه بالمناسبة ، مثل دولة الخطا أو (القره خطاي) ، التي جثمت على الحدود الشمالية الشرقية لبلاد العجم ، والتي كثيرا ما كان لها دور في بلاد الاسلام ، رغم أن أهلها من الأتراك الكفار ، فأعانت

---

(1) اسمه : « بلاتاجين Billatagine » وهو الذي حمله إلى بلاط ملكشاه انظر : Barthold P. 323

بعض الدويلات على بلوغ أغراضها ، أو على تنفيذ سياستها التوسعية وكانت لها من وراء تدخلاتها هذه مآرب رامت تحقيقها .

ولا ينبغي أن تنسى - في هذا الصدد - قوة الطائفة الفدائية من الإسماعيلية ، التي كان لها من وسائل الفتك والتقتيل ما أدخل الفزع حتى في نفوس الملوك ، فهابوهم مرة ، وهادنوهم أخرى ، وحاولوا القضاء عليهم أحيانا ، ولكن دون جدوى ، وقد تحصنوا بقلاع منيعة ، جمعوا فيها الأموال الطائلة ، والأسلحة الكثيرة ، وفرضوا أنفسهم على المجتمع بوسائل القوة والإرهاب ، حتى أصبحواقوة يقرأ لها كل حساب .

تولى بعد قطب الدين محمد - على خوارزم - ابنه : اتسز وذلك سنة 521 / 1127 فعمل على توسيع نفوذه على حساب مملكة سنجر (السلجوقي) فحاربه سنجر وقتل عددا من أتباعه بما فيهم ابنه ، كما سلفت الإشارة إلى ذلك (1) .

وللانتقام من سنجر التجأ اتسز إلى الخطا (من كفار الترك) ، فأوقعوا الهزيمة بسنجر ، ولكنهم أفادوا من ذلك ، بان استولوا على بلاد ما وراء النهر ، واستمر الصراع بين الخصمين العنودين إلى نهاية حياتهما ، فكانت وفاة اتسز سنة 551 / 1156 يعني عاما قبل سنجر .

بموت سنجر خلا الجو للخوارزميين نسبيا ، لولا ما حدث من صراع بين الإخوة ، ذلك أن ايل أرسلان توفي سنة 568 / 1172 فخلفه ابناه : سلطان شاه محمود ، وعلاء الدين تكش ، فتنازعا على كرسي الحكم ، وعندما اطرد علاء الدين تكش أخاه محمودا من خوارزم ، عمد هذا إلى الاستنصار على أخيه بالأتراك الخطا ، فكانت عظيمة ، ودفع الأبرياء من الأهالي الثمن غاليا ، على حساب أعراضهم ودمائهم وثروات بلادهم . كما حاول أن يستعين بالغوريين الذين اووه ولكنه مات سنة 589 / 1192 دون أن يفوز بطائل .

---

(1) انظر ما تقدم عند الحديث على الدولة السلجوقية .

وخلصت السلطة لعلاء الدين تكش ، الذى ما كان ليتغلب على أخيه لولا نصرة الخطا له ، فكانوا بذلك أصحاب نعمته ، مما خول لهم أن يسيطروا عليه ويسرفوا في طلباتهم .

والتفت علاء الدين تكش بعد ذلك إلى العراق ، فتقرب من الخليفة العباسي : الناصر ، الذي أغراه باخر ملوك السلاجقة : طغرلبك ، ووعده بأن يوليه مكانه ان هو قضى عليه ، فحارب طغرلبك وقضى عليه سنة 590 / 1193 ، وأراد علاء الدين أن يسجل هذا النصر ، فبعث براس طغرلبك إلى بغداد ، فعلق عدة أيام على أبوابها (1) .

وبعد هذه الموقعة صارت مملكة الخوارزميين ، تشمل كل ما كان تحت نفوذ السلاجقة في العراق ، وكذلك استولوا على همذان (عاصمة السلاجقة في العراق العجمي) وعلى اصفهان ، وعلى الري (من بلاد الجبل ، وقريبا منها قتل اخر ملوك السلاجقة)

ثم التفت علاء الدين إلى الأتراك الخطا ، الرابضين على بلاد ما وراء النهر منذ زمن ليس بالقصير ، فأطردهم من بخارى سنة 594 / 1197 (2)

وشعر علاء الدين بأن خطر الطائفة الفدائية من الاسماعيلية ، لا يقل عن خطر أي عدو من أعدائه ، فقصدهم وحاصر قلاعهم في « الموت » (3) وقتل عدد كبيرا منهم سنة 595 / 1199 . فاذعنوا له ، وقبلوا دفع ما فرض عليهم من جزية . (4)

وهكذا عاش علاء الدين تكش في صراع دائم مع القوى المعادية ، التي كانت تحف به من كل جانب ، ومات ولم يحقق كل ما أراد

---

(1) ابن الأثير : 12 ، 107 — 108 .
(2) ابن الأثير : 12 ، 137 — 138 .
(3) انظر ماتقدم عن هذه القلعة في الهامش عند الحديث على السلاجقه ، ص 173 .
(4) ابن الأثير : 12 ، 152 — 153 .

تحقيقه ، فقد عاجله الموت وهو في طريقه إلى خراسان لتوسيع نفوذه فيها وذلك سنة 596 / 1200 . (1)

خلف علاء الدين تكش بعد موته ابنه محمد (وقد لقّب بعلاء الدين أيضا) وعند ولايته كانت مملكة الخوارزميين تضم : خوارزم ، وبعض خراسان ، والري وبلاد العراق العجمي ، وكما ورث علاء الدين محمد هذه المملكة الواسعة ، ورث أعداء متربصين محيطين بمملكته .

فبموت علاء الدين تكش طمع الغوريون في الابن (علاء الدين محمد) فاستولى شهاب الدين الغوري على مرو ، ونيسابور ، ثم رحل إلى أملاكه في بلاد الهند (2) ، وذلك سنة 597 / 1201 ، فبعث علاء الدين محمد رسالة إلى أخ شهاب الدين الغوري (غياث الدين حاكم أملاك الدولة الغورية بفارس) ، يعتب عليه فيها (3) ويهدد بإرسال الحملات إلى خراسان ، وللرسالة مدلولات كثيرة على الوضع السياسي ، والقيم في هذا العصر .

وفعلا استعاد علاء الدين محمد عن طريق القوة ما أخذه الغوريون من خراسان وزاد على ذلك فاستولى على مدينتي بلخ وهراة وهما من أملاك الدولة الغورية وكان ذلك سنة 602 / 1205 (4) ثم استولى على اقليم مازندران في جنوب بحر قزوين ، وصارت الخطبة بها له سنة 603 / 1206 (5) .

ثم افتتك جميع بلاد ما وراء النهر من أيدي الخطا بعد حروب ومراوغات، وأعمل فيهم القتل ، فأفناهم سنة 604 / 1207 (6) .

---

(1) ابن الأثير : 12 ، 156 — 157 .
(2) ابن الأثير : 12 ، 164 — 167 .
(3) ابن الأثير : 12 ، 173 .
(4) ابن الأثير : 12 ، 224 — 230 .
(5) ابن الأثير : 12 ، 252 .
(6) ابن الأثير : 12 ، 269 — 271 .

وواصل سياسته التوسعية فبسط نفوذه سنة 611 / 1214 (1) . على أقاليم كرمان ومكران ، بما في ذلك الساحل المطل على المحيط الهندي وبضميمة ميناء هرمز التجاري ، وكذلك الأقاليم الواقعة غرب نهر السند .

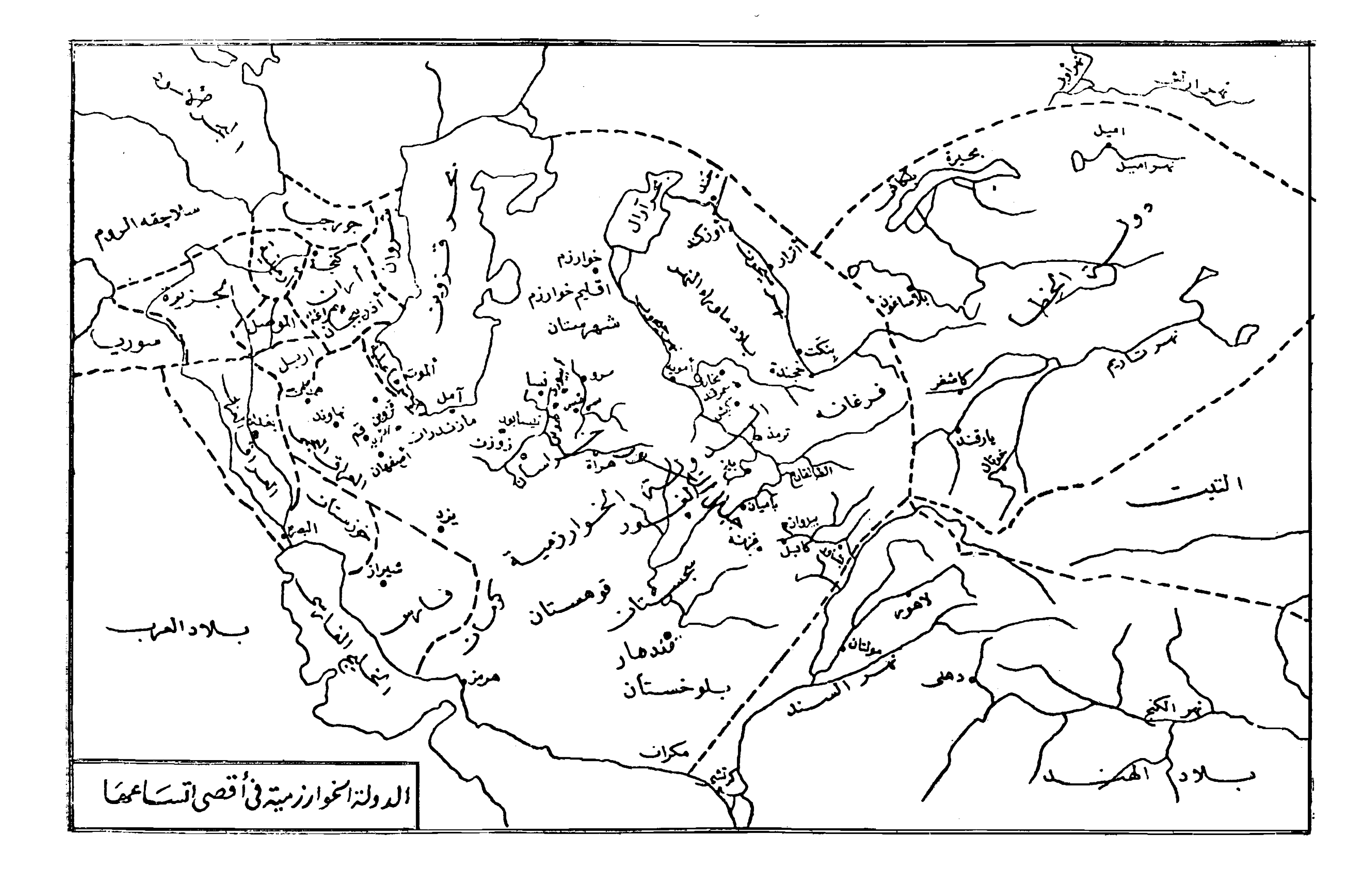
ثم احتل غزنة عاصمة الغوريين ، وكان قد ضيق الخناق عليها من قبل ، فخطب له وضربت السكة باسمه ، وبعد دخول المدينة أعمل القتل ، في رقاب الجنود ، كما قتل حاكمها « قتلغ تكين » ونهب الأموال وحمل ما استطاع حمله إلى بلاده . (2)

وبعد الاستيلاء على غزنة عثر علاء الدين محمد على رسائل كان قد بعث بها الخليفة العباسي الناصر يحرض فيها الغوريين على التحالف مع الخطا للوقوف في وجه التوسع الخوارزمي ، فاعتزم علاء الدين محمد اخضاع الخليفة العباسي لسلطته مثلما كان الحال مع ال سلجوق ، فسار بجيشه جهة الغرب سنة 614 / 1217 ، ولكنه لم يحقق مطمحه في هذه الحملة ، بسبب موت جنوده بمؤثرات طبيعية (3) ورغم ذلك فقد استطاع أن يوطد نفوذه في العراق العجمي ، والاستيلاء على كثير من المدن والأقاليم ، بحيث بلغت مملكة الخوارزميين أقصى اتساعها (4) وصارت حدودها كما يلي :

- من الشمال : بحر قزوين ، وبحر ارال .
- من الشرق : حدود الهند (على مقربة من نهر السند) ودولة الخطا .
- من الجنوب : الخليج الفارسي ، والمحيط الهندي .
- من الغرب : حدود العراق العربي .

---

(1) ابن الأثير : 12 ، 303 – 304 .
(2) ابن خلدون ، التاريخ : 5 ، 108 .
(3) ابن الأثير : 12 ، 316 – 318 .
(4) انظر الخريطة فيما يلي .



الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

ولقد أصبحت هذه الدولة بجغرافيتها تلك ذات مكانة في العالم ، لا من حيث الوضع السياسي فحسب ، بل من حيث ما تضمه من الثغور التجارية الهامة في الجنوب ، كميناء هرمز (عند مدخل الخليج الفارسي) ، إذ كانت تمر به تجارة الهند والصين من ناحية وتجارة اليمن ومصر من ناحية أخرى . هذا بالإضافة إلى الطرق التجارية البرية للتجارة الأسيوية ، التي كانت تسيطر عليها هذه الدولة .

وقد ضمت هذه المملكة الخوارزمية مدنا من أمهات المدن الاسلامية ، التي عرفت بعلمائها وفقهائها ، مثل بخاري ، والري ، ونيسابور ، وهمذان وغيرها ، أو التي عرفت بعظمتها وخيراتها وحدائقها ، مثل سمرقند وغيرها .

بهذه المملكة العظيمة اكتسب علاء الدين محمد هيبة معاصريه من الملوك والحكام فخافه اتابكة فارس ، واستظل أحدهم برايته وهو : سعد وتنازل لعلاء الدين عن جزء من بلاده وخطب على المنابر باسمه ، وكذلك ضربت السكة باسمه (1) وبذلك دخل في حماية الخوارزميين .

كما أن بعض مدن عمان خطبوا على منابرهم باسم علاء الدين ، لما في ذلك من صون لمصالحهم التجارية ومن حفاظ على أراضيهم (2) .

وباتساع المملكة الخوارزمية لم يعد علاء الدين قادرا على السيطرة على جميع البلاد ، فقسمها على أولاده (على أربعة منهم) ، وبقي هو المرجع يعودون إليه إذا ما صادفهم عائق .

وأوصى علاء الدين — قبل موته — بولاية العهد لابنه الاصغر : أزلاغ شاه (3) (الملقب بقطب الدين) ، وكان ذلك استجابة لأمه « تركان خاتون »

---

(1) ابن الأثير : 12 ، 319 — 320 .
(2) ابن الأثير : 12 ، 304 .
(3) لعلاء الدين تسعة ابناء قتل ستة منهم من طرف المغول . انظر : ثبت الخوارزميين فيما يلي .

الخوارزميون

(1) نوشتكين

(2) قطب الدين محمد

(3) اتسز

(4) أيل أرسلان — سليمان

(5) سلطان شاه محمود — (6) علاء الدين تكش

(7) علاء الدين محمد — يونس خان — تاج الدين على شاه — على شير — ناصر الدين ملكشاه

هندوخان — أرسلان شاه

خان ملك — أغول ملك — كوجاى تكين — يحي — قطب الدين أزلاغ شاه — أق شاه — غياث الدين شير شاه — ركن الدين غور شاه — (8) جلال الدين منكبرتي

قتلوا على أيدى المغول

1 — نوشتكين	:	470 — 490 هـ = 1077 — 1096 م .
2 — قطب الدين محمد	:	490 — 521 هـ = 1096 — 1127 م .
3 — أتسز	:	521 — 551 هـ = 1127 — 1156 م .
4 — أيل أرسلان	:	551 — 568 هـ = 1156 — 1172 م .
5 — سلطان شاه محمود	:	عزل سنة 568 هـ = 1172 م . وتوفي سنة 589 هـ = 1193 م .
6 — علاء الدين تكش	:	568 — 596 هـ = 1172 — 1199 م .
7 — علاء الدين محمد	:	596 — 617 هـ = 1199 — 1219 م .
8 — جلال الدين منكبرتي	:	617 — 628 هـ = 1219 — 1231 م .

التي أبدت له هذه الرغبة ، ثم عدل عن ذلك وأوصى بولاية العهد لابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي ، على أن ولاية العهد هذه ، قد صارت فيما بعد الغزو المغولي ، مثار نزاع شديد بين أبناء علاء الدين .

مات علاء الدين محمد في سنة 617 / 1219 ، بقلعة في بحر طبرستان . وكان قد فر إليها عندما كانت عساكر التتر تلاحقه (1) . والملاحظ أن هذه السنة هي السنة التي دخل فيها التتر إلى بلاد الاسلام لأول مرة ، ثم تتابعت غزواتهم فيها ، وكانوا قبل ذلك قد استولوا على بلاد تركستان (كاشغر وبلاساغون) ومنها تسربوا إلى بلاد ما وراء النهر ، ثم عبروا نهر جيحون وتسربوا في أنحاء البلاد (2) وكان منهم ما كان مما تكاملت المصادر في وصفه .

وهكذا تضمحل هذه الدولة في عنفوانها ، وفي ولاية اخر ملوكها جلال الدين منكبرتي الذي توفي سنة 628 / 1231 ولم تتمكن من تنظيم شؤونها الداخلية تنظيما مدنيا سليما ، بسبب الحروب والفتن المتتالية ، حتى إذا جاء الغزو المغولي ، لم تجد الدولة من الطاقة ما يكفي ، لرد غاراتهم وإيقاف سيل جيوشهم على البلاد الاسلامية ، ولا يخفى بعد هذا أن بلاد العجم كانت هي الباب الذي استفحل منه الغزو المغولي في بلاد الاسلام .

و) الوضع في عموم بلاد الاسلام :

في هذه الرقعة من العالم الإسلامي (بلاد العجم) في القرن السادس / الثاني عشر ثم في أوائل السابع / الثالث عشر ، عاش الإمام فخر الدين الرازي وبين هذه الدويلات المتعادية المتطاحنة ، ولد ونشأ ، وفي احضان هذا المجتمع الذي ضم اخلاطا من البشر ، انتسبوا إلى الإسلام كما انتسب ملوكهم ، ولكن دون أخذ صحيح بقيم الإسلام ، تربى وتعلم . فكان عالما موسوعيا جليلا .

---

(1) ابن الأثير : 12 ، 369 – 370 .
(2) ابن الأثير : 12 ، 361 .

ولكن الذى يثير الإنتباه ، هو أن الدارس لتاريخ بلاد العجم في هذه الفترة التي عاشها الرازى ، لا يحس بترابط بين هذه البلاد وبقية بلاد الاسلام الاخرى ، باستثناء بغداد التي كانت الأطماع تحوم حولها حسب تداول الدول .

فكيف كان الوضع في بقية العالم الاسلامي ؟ وهل من مبرر لهذه الانفصالية التي قد يشعر بها المتتبع للاحداث التاريخية ؟

أغلب الظن أن العالم الإسلامي ، كان يعاني في هذا القرن (السادس / الثاني عشر) نفس الأزمة التي تعانيها بلاد العجم ، وهي فيما يبدو أزمة امتزاج الأجناس المختلفة من البشرية ، دون أن تبقى القيم الاسلامية التي كانت الدافعة والمعدلة — في نفس الوقت — لهذه الأمم الاسلامية ، التي كثيرا ما عرفت الانسجام والتلاحم في أحقاب سابقة ، يذكرها التاريخ مع نفس اختلاف الأجناس تقريبا .

وبالنظر إلى خريطة العالم الإسلامي (1) في أواخر القرن السادس / الثاني عشر نجد أن السلط الكبرى التي تتقاسمه هي :

— السلطة الخوارزمية في بلاذ العجم ، وحولها كثير من المقاطعات التي لم تخضع لسلطتها بما في ذلك الخليفة العباسي في بغداد .

— السلطة الأيوبية على مصر والشام والحجاز ، التي تعاني غائلة الحروب الصليبية المدمرة للطاقات وللقيم الإنسانية على السواء تلكم الحروب التي صارت كالبركان الهائج ، كلما اسكتت له فوهة انفجرت فوهات أخرى قريبا منها وبعيدا عنها . وقد لا يكون من المناسب أن نذكر تفاصيل هذه الحروب ، وإنما نكتفي بما تشير إليه خريطة العالم الإسلامي مدة هذه الحروب الصليبية من أواخر القرن الخامس / الحادي عشر إلى أواخر السابع / الثالث عشر (2) .

---

(1) انظر هذه الخريطة فيما يلي .

(2) انظ هذه الخريطة فيما يأتى أيضا .




الحروب الصليبية
أميال
بحر الشمال
البحر البلطي
روسيا
البحر الأسود
المحيط الأطلسي

وبتتبع هذه الخريطة ندرك الأراضي الإسلامية التي مستها هذه الحروب بنارها ، سواء المشرق أو المغرب الاسلاميين . واذا كان المقام لا يسمح بالدخول في تفاصيل الأحداث لهذه الحروب ، فان فظائعها وأهوالها لا تقل عن أهوال الحروب الداخلية ، بين دويلات بلاد العجم فيما بينها ، ومع القوى الأجنبية المتاخمة لحدودها .

— كانت سلطة الموحدين في المغرب الإسلامي (افريقية والجزء الباقي من بلاد الأندلس) ، تعاني — هي أيضا — الفتن الداخلية (بالمفهوم العام لبلاد الاسلام) مثل غزو الاتراك — من مصر بقيادة «قراقوش» — لطرابلس الغرب وقابس وما حولها (1) سنة 568 / 1272 . ومثل فتنة الملثمين ببجاية سنة 580 / 1184 (2) واستيلائهم على افريقية (تونس) في السنة الموالية . (3) او الحروب مع القوى الأجنبية ، وذلك ما يظهر في محاربة الفرنجة سواء في بلاد الأندلس (4) ، أو في إفريقية وغزوهم للسواحل الشرقية (المهدية — طرابلس) كما تشير إليه خريطة الحروب الصليبية السالفة .

على هذا الوضع المتأزم كان العالم الاسلامي في عصر الرازى ، وعلى هذا الوضع المنهار كانت بلاد العجم منبت الرازي العالم الفحل .

2) الوضع الاجتماعي في عصر الرّازي

الحديث عن الوضع الإجتماعي بالنسبة لأى عصر من العصور يقتضي الوقوف على الوضع السياسي أولا لأن الوضع الاجتماعي في أغلب الأحيان لا يعدو أن يكون انعكاسا للوضع السياسي ، فسياسة الحكام في تسيير العامة لها دخل كبير في تكييف حياتهم ، وسلوك الحكام أنفسهم كثيرا ما يتخذ مثالا يحتذيه الكبراء والوزراء ويتبعهم في ذلك من دونهم

---

(1) ابن الأثير : 11 ، 389 .
(2) ابن الأثير : 11 ، 507 — 508 .
(3) ابن الأثير : 11 ، 519 — 522 .
(4) ابن الأثير : 11 ، 390 .

من لفيف المجتمعات ، وكذلك تنشأ العادات والتقاليد بالنسبة لكل عصر وبالنسبة لكل جيل ، وكم لهذه التقاليد من تأثير في نوعية البناء التي تكون عليها حضارة الأمة .

سمة هذا العصر :

يمكن القول بأن سمة هذا العصر (عصر الرازي) التي يلحظها اللاحظ طيلة دراسته له ، ومطالعاته عنه ، هي سمة الصراع الذي لا ينفك الا ليعود بأشد مما كان ، ذلك أن ارتقاء الدويلات المتعاصرة لم يقم البتة على أساس من القيم الحقيقية أو الجهود المثمرة ، وإنما قام بالدرجة الأولى على أساس من هذا الصراع المزمن ، وعلى أساس من الشره وحب السيطرة ، فلا غرو بعد ذلك أن تتغير القيم في الأوساط الاجتماعية ، وأن تسود الأنانية ، وعدم المبالاة بأنين الضعفاء ، ما داموا مدرجا لرقي الأقوياء وذوي الحاجة .

أضف إلى ما تقدم ، حالات التنافر وعدم التجانس ، التي كانت تسود المجتمع بسبب وجود مزيج من الأجناس البشرية : من أتراك وهم الجنس الغالب والمسيطر ، وفرس ، وعرب ، وهما جنسان يمثلان الأقلية المغلوبة .

ثم ما يتبع ذلك من اختلاف لطبيعة هذه الأجناس واختلاف عوائدهم وحتى معتقداتهم ، فلم يعد دين يوحد كلمتهم وعقيدتهم ، ولم تعد قيم أخلاقية تقود خطاهم ، وإنما هو صراع لاهدف له الا الاستيلاء على ما بيد الغير كما هو الشأن في المجتمعات البدائية .

وظاهرة هذا الصراع كما نلحظها في سلوك السلاطين والأمراء والحكام بقطع النظر عن صلات القرابة التي كانت تربط بينهم أحيانا ، نلحظها بين العلماء وما جرى بينهم من تناحر لاختلاف مذاهبهم الفقهية أو لاختلاف فرقهم الكلامية ، نلحظها بين أقوام العامة الذين يغيرون على بعضهم في غارات موجهة كغارات أرباب الفرق (من اسماعيلية وغيرها)

أو غارات تلقائية (كغارات قبائل الغور الذين أطردهم الخطا فراحوا يبحثون لأنفسهم : عن معايش لهم وعن مراعي لحيواناتهم) .

ومن لنا بالمصادر التي تصور لنا حياة الفرد في الأسرة وفي الشارع مع التاجر والصانع وكل من ترتبط بهم حياتهم ، المطنون — لو وجدت هذه المصادر — لصورت لنا صراع الفرد مع الفرد كصورة ملائمة لعامة صراع هذا العصر .

هذه هي الظاهرة الأولى لهذا العصر الذى عاش فيه الرازى ، واذا لم نأت بأمثلة محدودة للتدليل على هذا الصراع ، فذلك لأن كل حادثة من أحداث هذا العصر تعتبر صراعا لا يهدف إلى الخير العام ولا يتخذ الوسائل الشريفة .

والظاهـرة الثانيـة هـي ظاهرة انتشار العنصر التـركى وما كان له من تأثير على الحياة العامة .

— العنصـر التـركي :

من الظواهر المميزة لهذا العصر استفحال تأثير العنصر التركي فيه ، فقد نزحت إلى بلاد الاسلام عامة وبلاد العجم خاصة عدة قبائل تركية ، اعتنقت الاسلام ، واستوطنت بـلاد المسلمين ، من هذه القبائل : قبائـل كانـكالي Cancalis ومنها قبيلة « بيساووت » (1) التي منها « تركـان خاتون » أم علاء الـدين محمد (الخوارزمي) التي كانت لها كلمـة مسمـوعة (2) وتأثير على ابنها السلطان المذكور ، وقبائل القفجاق (3) وهي من القبائل الموالية للخوارزميين والمصاهرة ملوكها لملوكهم .

وقد شهد هذا العصر كثرة نزوح الأتراك إلى بلاد الإسلام ، وكان لهذا النزوح انعـكاس سيء على سير الأمور ، مما أحدث عدة متاعب للدول

---

(1) النسوي : ص 99 و ص 122 .
(2) نفس المصدر .
(3) النسوي : ص 284 و ص 377 .

الحاكمة عموما ، ومن أبرز أمثلة ذلك ما لاقاه على السواء السلاجقة والغوريون والغزنويون في اخر أيامهم ثم الخوارزميون من أقوام الغز ، وكذلك كان الشأن بالنسبة لجل قبائل الترك التي لا تخضع لنظام ولا لقوانين اجتماعية وإنما اعتمادهم في الحياة على الغزو والنهب والتقتيل كدابهم في حال كفرهم لان الاسلام — لمن أسلم منهم — لم يتركز في قلوبهم ، فلا سبيل اذن لتهذيب طباعهم . ولم يكن أمر هؤلاء الأتراك ليقف عند كثرتهم ونفورهم عن النظام ، وإنما الأمر أشد خطورة من ذلك اذ أن السلطة والوظائف كانت بأيديهم في المشرق الإسلامي على الخصوص، منذ أن تخلص العباسيون من العنصر الفارسي واستعاضوا عنه بالأتراك الذين امتلأت بهم القصور والدواوين كما امتلأت أسواق تجارة العبيد .

وقد اعجز أولي السلطان امر أرباب الولايات وأرباب الوضائف من هؤلاء الأتراك فراحوا يسترضونهم اذ لم يمكن الردع بالقوة ، فأغدقوا عليهم العطايا وسمحوا بمقاسمتهم شؤون الدولة ، ولما لم ينفع كل ذلك صاروا يخلعون عليهم القاب الشرف . كما حدث في عهد علاء الدين محمد وابنه جلال الدين منكبرتي (الخوارزميين) .

ولا غرو بعد هذين المظهرين : مظهر الصراع الدائم في هذا العصر ، ومظهر الغلبة للعنصر التركي ، ان يوجد في الأمة قسم يكون مغلوبا على أمره ، وعلى حسابه يجري كل شيء ، وعليه وحده تحمل التضحيات وان بهض الثمن ما دام ذلك لفائدة الطبقة المتفوقة .

— الطبقات الاجتماعية

من الطبيعي اذن أن تكون حياة المجتمع في هذا العصر تقوم على الطبقية الفاحشة ، التي لا حماية فيها للضعيف كما لا عهد ولا ذمة للقوى ، كما تقوم على استخدام الجماهير الشعبية وتسخيرها لخدمة مصالح الحكام والمستبدين ، فأحداث هذا العصر تطالعنا بسلسلة من الحروب لا تفتر ، وبغارات متوالية لا تكاد تنقطع ، وبردود فعل انتقامية يموت فيها الالوف

المؤلفة ، وما يتبع ذلك من سطو ونهب للأموال والمنازل ، ثم ما يتبع ذلك من تخريب وتدمير وتشريد واعتداء على الأعراض والأنفس البريئة ، ألم يكن ذلك على حساب الضعفاء من عامة الناس ؟ وألم يكن كلّ ذلك (في هذا العصر وفي هذه البلاد على الخصوص) في سبيل عرض تافه أراده سلطان أو وزير أو ذو جاه ؟

وفي مقابل ذلك تطالعنا الأحداث بمقدّرات الأموال التي في خزائن الملوك ، هذه الأموال التي يفتضح أمرها عندما تغتصب ، كما تطالعنا بأوصاف لزينة القصور ومباهجها ومسراتها وما يستلزمه وضعها من أموال وبذخ ، كما تحدثنا بعض كتب التراجم من وقت لآخر عن ثروات مهولة بأيدي بعض الأفراد (1) (من ذلك فخر الدين الرازي الذي أصبح يغدق على الشعراء كما يغدق الملوك) (2) أليست كل هذه الثروات المكدسة بأيدي الخاصة هي ثروات الأمة التي قضي فيها الحكم المستبد أن تكون كذلك دون عدالة اجتماعية ودون مساواة في الحقوق والواجبات التي قدرها الإسلام وارتضاها الله لعباده ؟

ثم ان هذا الوضع الطبقي قد جعل الحكام والمحكومين على السواء يقفون موقف العاجز أمام الجوائح والمصائب ، فتأتي هذه المجاعات (3) على عدد مهول من أبناء الشعب ، فيموت من يموت جوعا ثم يموت من سلم بالأوبئة والأمراض التي تعقب المجاعات عادة . وانما يكون التأثير عادة للمجاعات والأوبئة على المجتمعات الضعيفة المتداعية التي ليس لها ما تواجه به أمثال هذه الكوارث الطبيعية .

كما ال أمر الإهمال الذي كانت تلاقيه الطبقات الضعيفة – زيادة على مظاهر الفقر والتفكك الاجتماعي – إلى انتشار الفساد والانحلال الأخلاقي ، ويفهم ذلك سواء من سيرة الملوك والوجهاء وحتى بعض العلماء ، أو من

---

(1) الصفدي : 4 ، 253 .
(2) الصفدي : 4 ، 254 .
(3) ابن الأثير : 11 ، 451 – 452 .

سلوك العامة حسبما نصت عليه بعض المصادر (1) وان كان بقلة ، لأن أغلب المصادر تهتم بتدوين الأحداث السياسية التي تتصل بالسلاطين والحكام أكثر من سواها .

– الحروب والفتن :

طغت على هذا العصر ظاهرة أخرى هي ظاهرة الحروب المستمرة – كما سلفت الاشارة إلى ذلك – وكان لهذه الحروب تأثير مباشر على الحياة بكل جوانبها فقد انعدم الأمن تقريبا ، كما انعدم الاستقرار والاطمئنان على الأنفس والعيال والمال ، وصار الحكام والمحكومين على السواء لا يفكرون الا في توفير سبل النجاة من الهلاك ، وكان لهذا الشعور انعكاسه حتى في فن العمارة ، فقد كان من أكبر شواغل الحكام والمحكومين أحداث الحصون للاتقاء من شر الغارات الطاحنة ، وهكذا أحيطت المدن بالأسوار المنيعة وشيدت القلاع داخل هذه المدن ليلجأ إليها السكان ، وكان السلاطين أنفسهم يحتفظون بقصور جميلة داخل هذه القلاع .

أما الفتن التي كانت تشتعل نيرانها من حين لآخر بين المتساكنين من الأهالي فهي كثيرة وغريبة في هذا المجتمع ، بل هي تعطي أبشع الصور عن مجتمع ينسب إلى الإسلام (دين العدالة ، والاخاء ، واتحاد الكلمة) فلا تكاد تمضي سنة من السنوات دون أن يطالعنا ابن الأثير في الجزأين الحادي عشر والثاني عشر من كامله بفتنة عظيمة جرت في ناحية من نواحي بلاد الإسلام، وكان بسببها ما كان من تقتيل وترويع وانتهاك حرمات، وليست كل الفتن قد ذكرتها كتب التاريخ وإنما هو البعض الذي كانت له خطورة دون سواه ، ودون ما يجري بعيدا عن الأمصار الكبرى .

وبالعود إلى هذه الفتن والتعرف على أسبابها يمكن تبويبها إلى قسمين هامين :

---

(1) انظر مثلا ابن الأثير : 11 ، 476 .

فتن عقائدية مذهبية وهي الأغلبية الساحقة لهذه الفتن : مثل فتنة استراباذ بين الشيعة والشافعية سنة 554 / 1159 — وفتنة اصفهان التي استمر القتال فيها طيلة ثمانية أيام وقتل فيها خلق كثير بسبب التعصب للمذاهب (1) وذلك سنة 560 / 1164 ، ثم عادت هذه الفتنة في نفس المدينة ولنفس الأسباب تقريبا من سنة 582 / 1186 إلى سنة 586 / 1190 (بين الحنفية والشافعية) ، وفتنة الفرق بالرى بين أهل السنة والشيعة سنة 582 / 1186 أيضا ، وفتنة فيروزكوه بين الكرامية وفخر الدين الرازى (الشافعي) وذلك سنة 595 / 1199 ، (2) إلى اخر هذه الفتن التي ما أشبهها بفتن « الكاتوليك » و « البروتستان » عند المسيحيين ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على انحطاط المستوى الذي صار عليه المسلمون في فهم دينهم وفي العمل بمبادئه ، حتى تفرقت بهم الأهواء فصاروا شيعا تتعادى وتتناحر والله يعلم أن الاسلام براء من كل ذلك .

وفتن هي من نوع ما تسببه المطامح الدنيوية والمكائد البشرية كفتن الاسماعيلية التي تفشت في عامة البلاد الاسلامية ، وكفتن حكام الأمصار والولايات الناشزين عن الطاعة ، وكفتن بعض العامة التي تحدث لأتفه الأسباب أحيانا كفتنة هراة (3) في سنة 602 / 1206 .

وهذه الفتن بدورها تدل — زيادة على انحطاط المستوى في الشعب — على ان الضوابط الاجتماعية والقوانين التنظيمية التي تقر العدل والأمن والمساواة مفقودة أو تكاد .

— نظام الحكم .

نظام الحكم في هذا العصر نظام ديكتاتوري جائر ، يقوم أساسا على اغتصاب السلطة اغتصابا بالقوة والمكيدة دون استناد إلى شرعية ما ، اللهم

---

(1) ابن الأثير : 11 ، 319 .
(2) ابن الأثير : 12 ، 151 — 152 .
(3) ابن الأثير : 12 ، 208 .

الا شرعية مزيفة تستر بها السلاطين والملوك أمام الشعوب المحكومة ، وهي الحكم باسم الخلافة التي بقيت القلوب تهفو إليها ، رغم كونها قد صارت ألعوبة في أيدي هؤلاء الحكام المستبدين بالسلطة والنفوذ .

والظاهر أن هذا الملحظ وحده هو الذي جعل الخلفاء العباسيين يتوالون على عرش الخلافة ولو كانوا مجردين من كل سلطة حتى في قصورهم ، وذلك حتى يبقى المجال لهؤلاء المغتصبين لسلطتهم من بويهيين ، وسلاجقة وخوارزميين أن يتستروا بستار الشرعية ويضفوا على أنفسهم شيئا من قداسة الخلافة التي يعتقدها العامة ، ويبدو أنه لولا هذا الملحظ لكانت قد قوضت الخلافة العباسية منذ استيلاء البويهيين على الأقل . ومن أجل هذا الإعتبار أيضا نجد أن علاء الدين محمد (الخوارزمي) الذي كان شيعيا ومعاديا للخليفة العباسي ، يعمد — وقد عزم على انهاء الخلافة العباسية — اصطناع خليفة من العلويين في ترمذ ، قبل ذلك ، وهذا الخليفة هو «علاء الملك» فصكت النقود باسمه وخطب له على المنابر ولكن علاء الدين محمد قد مات قبل اتمام أمنيته .

أما التنظيم الإداري لسير دواليب الحكم فلم يكن تنظيما مستقرا مُحكما ، بسبب عدم استقرار الدويلات التي سبق الحديث عنها في عاصمة واحدة ، وهذا يرجع إلى عمليات الكر والفر في الحروب المتوالية ، فقد تتخذ الدولة الواحدة عدّة عواصم ، وحسبما تسمح به الظروف والأوضاع السياسية يكون مقر السلطة ومقر المصالح الإدارية التي تتبعها بحكم الضرورة :

وأهم العواصم التي كانت مستقرا للسلاطين هي :

خوارزم في بلاد خوارزم : الدولة الخوارزمية
مرو في خراسان : الدولة السلجوقية
سمرقند في بلاد ما وراء النهر : عاصمة مؤقتة للسلاجقة

---

(1) النسوي : ص 81 .

اصفهان في العراق العجمي	:	عاصمة للسلاجقة
نيسابور في خراسان	:	عاصمة للسلاجقة
هراة في خراسان	:	عاصمة الغوريين
غزنة في شرقي فارس	:	عاصمة الغزنويين ثم الغوريين ... الخ

ورغم أن المصالح الإدارية (الدواوين) لم تلق حظا وافرا من العناية ولا من التنظيم المحكم – كشأن أغلب الأشياء في طبيعة هذا العصر – إلا أنها موجودة على كل حال وقد قامت بوظيفتها كما تأتّى لها أن تقوم ، ومن أهم هذه الوظائف والدواوين ما يأتي :

– الوزارة : يعتبر الوزير معينا للسلطان في تصريف أمور الدولة وهي من أهم الوظائف التي تضفي على صاحبها الهيبة والجلال (1) كما تطلق هذه التسمية في هذا العصر على ولاة الاقليم أو حكام المدن ، فكثيرا ما يلقبون بلقب « وزير » ويجد السلاطين عادة فيمن يتولى هذا المنصب عونا كبيرا لهم ومستشارا حكيما خصوصا إذا تقلد هذا السلطان الملك وهو صغير السن وكثيرا ما يحدث هذا .

كما أن هذا المنصب كثيرا ما انقلب وباء على السلاطين إذا ما اشتد ساعد هؤلاء الوزراء وأحسوا بضعف مخدوميهم ، فيخرجون عن طاعتهم ، ويستعينون عليهم بموارد دولتهم التي قد يستبدون بها زيادة على اقطاعاتهم ومرتباتهم (2) .

– **ديوان الإنشاء** : هو أشبه بوزارة الخارجية في عصرنا . يتولى أمره صاحب الديوان ، ومهمته تنظيم العلاقات الخارجية من إبرام معاهدات وإرسال السفراء إلى الدول المجاورة . ومن سفراء الدولة الخوارزمية مثلا المؤرخ محمد النسوي ، صاحب كتاب : **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي** ،

---

(1) النسوي ص 81 .
(2) النسوي : ص 81 / 82 .

وكانت سفارته لدى الخلافة العباسية ، ولدى الطائفة الاسماعيلية وغيرهما (1) .

– **ديوان الأموال :** هو بيت المال ، أو الخزينة العامة كما تعرف في عصرنا ويتولى تسييرها الخازن (2) أو « الخازندار » .

وتتكون أموال الدولة عادة من الضرائب التي يفرضها السلطان على أقاليم مملكته ، والتي يتولى حكام الأقاليم جبايتها من السكان ، ومن الجزية المفروضة على الأقاليم التي تدين له بالولاء والطاعة . أما انفاق هذه الأموال ، فان ما يتبقى بعد ذهاب الجزء الأعظم منها إلى جيوب الحكام ينفق على قصور السلاطين ، وعلى شؤون الدولة العامة ، وعلى الأخص الجيوش بسبب استمرار الحروب .

– **ديوان الجيش :** هو أشبه ما يكون عندنا في هذا العصر بوزارة الدفاع ويتولى أمره « السلاح دار » (3) ويعتبر هذا الديوان بالنسبة لهذا العصر من أهم الدواوين ، اذ أن له دورا مهما في اعداد العدة لسلسلة الحروب المتمادية .

ومن توابع هذا الديوان ما يعرف بـ « بيت السلاح » الذي تحفظ فيه الأسلحة ، ويعمل فيه عدد كبير من الصناع لإعداد الأسلحة واصلاحها (4) وتتكون جيوش الدويلات التي حكمت بلاد العجم في هذا العصر من قسمين هامين هما : المشاة ، والفرسان (الخيالة) . أما ما يتعلق بحماس هذه الجيوش واندفاعها فذلك في الغالب رهن الارزاق التي يحصلون عليها ، ورهن الجرايات التي يتقاضونها ، فهم حينئذ من المرتزقة الذين لاهم لهم الا الحصول على أوفر المكاسب ، ولهذا كانوا اذا استولوا على مدينة

---

(1) النسوي ص 336 / 344 .
(2) النسوي : ص 249 .
(3) النسوي : ص 56 ، ص 164 .
(4) القلقشندي : 4 ، 11 – 12 .

اعملوا النهب في أموال أهلها ، وكان الجنس الغالب على هذه الجيوش هو الجنس التركي بالاضافة إلى أجناس أخرى ، وقد عرفت هذه الجيوش بصفة عامة بشجاعتها مع القسوة والضراوة في كثير من الأحيان .

وانعدام القيم الروحية والأهداف السامية لدى هذه الجيوش جعل السلاطين لا يأمنون غوائلهم ، ولا يثقون بهم ، فعمدوا إلى قيادتهم بأنفسهم ، واتخذوا لأنفسهم حراسا خاصين .

– **النظام القضائي** : يبدو أن نظام القضاء كان يلقى عناية خاصة من السلاطين . فقد كانوا يعززون به جانبهم حتى لا يبقوا تحت تأثيرات الوزراء والولاة ، ويخلعون على القضاة وعلى أقربائهم الخلع(1) اكراما لهم. وقد كانوا يعينون لكل مدينة قاضيا (مذهبه هو مذهب أهلها) ليحكم بينهم بما تقتضيه الشريعة الاسلامية ، وبالنسبة للمدن الكبرى كانو يعددون القضاة بعدد المذاهب التي يتبعها السكان . وكان هؤلاء إلى جانب فصلهم للنوازل بين الناس يقومون بوظيفة أخرى هي وظيفة التدريس للعلوم الدينية في المدارس أو في المساجد .

وليس معنى هذا أن القضاء قد سلم من الاضطراب الذي شمل هذا العصر ، بل تحدثنا المصادر عن تعامل بعض القضاة مع الوزراء على أساس تقديم الرشوة لهم لاسترضائهم وأمن جانبهم وأين للقاضي ما يقدمه للوزير من المقادير المالية البالغة (2) ، لو لم يكن قد استلها من جيوب المتقاضين ؟

– **نظام الحسبة** : كان نظام الحسبة يرتبط بالنظام القضائي ، ومهمة المحتسب تتمثل في المحافظة على سير النظام في الأسواق ، وذلك بقمع حركة الغش بأنواعه في المبيعات وبتسليط العقوبة على مرتكبي هذا الغش ، كما

(1) النسوي : ص 77 .
(2) النسوي : ص 77 – 78 .

تتمثل في النظر في القضايا التي تتعلق بالنظام العام من مخالفات ، أو جنايات أحيانا مما يحتاج إلى سرعة الفصل (1) ، ويصحب المحتسب في جولاته رجال من الشرطة يقومون بتنفيذ ما يأمر به .

– **ديوان المظالم** : ويسمى في اصطلاح الترك « يولق السلطان » (2) وهو عبارة عن هيئة قضائية عليا ، تشبه محكمة الاستئناف في عصرنا الحاضر يطلق على رئيسها « صاحب المظالم » وسلطته أعلى من سلطة القضاة ذلك أن المتقاضين يلجأون إليه إذا اعتقدوا أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل. والغرض الأساسي من إنشاء هذا الديوان هو الحد من اعتداء ذوي السلطة والنفوذ ، وتسند رئاسة هذا الديوان عادة لواحد من أرباب القدر الجليل ممن عرفوا بالتقى والورع ، وقد يسمى باسم « قاضي المظالم » ، (3) ولقاضي المظالم من المهابة ونفاذ السلطة ما ليس لسواه من القضاة (4) العاديين، بدليل أن محكمة المظالم التي تنعقد عادة بالمسجد تحاط برجال الشرطة ، ويحضرها الحكام والقضاة للاستفادة ، كما يحضرها الفقهاء ، بالاضافة إلى الكتاب لتدوين ما يجري ، وبالاضافة إلى الشهود .

حكم السلاطين وحياة القصور :

بما أن الحكم يقوم على الفردية الاستبدادية في هذا العصر فإن السلاطين يتولون جميع السلط الزمنية تقريبا ، وإليهم مرجع النفوذ كله دون معارض يقدر على معارضتهم الا بالقوة واللجوء إلى الحرب .

وقد كان كثيرا ما يصدر هؤلاء السلاطين أحكامهم تحت تأثير الغضب ، أو الحقد وحب الانتقام ، فتكون أحكاما قاسية لا تخلو من وحشية ،

---

(1) حسن ابراهيم حسن : ص 313 – 316 .
(2) النسوي : ص 276 .
(3) حسن ابراهيم حسن : ص 310 – 313 .
(4) الماوردي : ص 79 – 80 .

وقد سجل هذا العصر أنماطا كثيرة من هذه القساوة والوحشية ، فقد عرف العصر بأنه عصر سمل الاعين ، حتى صار ذلك عادة مألوفة يهرع إليها كثيرا عند إرادة انهاء بعض الأطماع في كرسي السلطنة ، خذ لذلك مثلا : مغيث الدين محمد بن ارسلان شاه (من سلاجقة كرمان 537 / 1142 — 551 / 1156) فقد عمد عند انتصابه على عرش الملك إلى سمل أعين عشرين أميرا من اخوته وأبناء أخواته (1) حتى لا يطمع منهم طامع في الملك فينازعه عليه ، ونظير هذا ما وقع لملكشاه الثاني ابن بركيارق (السلجوقي) الذي خلع بعد أشهر من توليه الملك وهو في الخامسة من عمره ، ولانهاء مطامعه أو مطامع من يدفعون به — على أصح تعبير — وقع سمل عينيه (2) بكل بساطة ، لأن العملية أصبحت مألوفة . كما عرف هذا العصر بأنه عصر التفنن في أنواع القتلات ، فمرة تحت أرجل الفيلة كالذي فعله ابراهيم الغزنوي بخبازه الخاص (3) لما شكا إليه الناس قلة الخبز بسبب احتكار هذا الخباز للقمح والدقيق ، ومرة بالاغراق في الماء (4) ، ومرة بالتمزيق والتمثيل بالبدن (5) كالذي جرى لمجد الملك القمي الوزير للسلاجقة ، ومرة بالخنق كالذي حدث عند قتل « زبيدة » (6) أم بركيارق السلجوقي .

وقد يستفحل الغضب ببعضهم إلى درجة نبش القبور وإخراج رفاة الموتى واحراقها ، وذلك نكاية بأقاربهم من الأحياء ، كالذي حدث من علاء الدين حسين (الغوري) (الملقب بمحرق العالم) في غزنة عندما هاجمها للانتقام من بهرام شاه (الغزنوي) قاتل أخويه ، فقد نبش قبور جميع سلاطين الغزنويين وأحرق رفاتهم ، ولم يسلم من هذه الفعلة إلا ثلاثة من سلاطينهم (7) لأنهم كانوا أحياء أعني بهرام شاه ومن تولى بعده .

---

(1) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 380 .
(2) نفس المرجع : 2 ، 377 .
(3) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 381 .
(4) الخوانساري : ص 700 (جرى هذا لمجد الدين البغدادي) .
(5) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 377 .
(6) نفس المرجع .
(7) Enc de l'Islam. Tome. II, P. 1126 (Art. Ghuridespar. Bosworth)

أما حياة القصور والبلاطات فقد سلفت الاشارة إلى أنها حياة بذخ واسراف كما هو الشأن في كل القصور ، وقد امتلأت هذه القصور بالمماليك والجواري من الأتراك الذين تزايد الاقبال على اقتنائهم كما عجت بهم أسواق التجارة ، واتخذت فيها – أي القصور – عادات الفرس القديمة مع تحويرها والاضافة إليها مما يقلد فيه الملوك بعضهم بعضا ، ومن أجل هذا صارت الحياة فيها مركبة ، واحتاجت هذه الحياة إلى مشرفين متعددين ، يتولى كل مشرف السهر على اختصاص معين ، ويمكن أن نفهم من عرض الوظائف التي اختصت بها هذه القصور نوع الحياة بها ومقدار ما تستلزمه هذه الحياة من نفقات :

– **مشرف المماليك : (1)** وهو الذي يتولى النظر في مشاكلهم وكل ما يتعلق بمجرى حياتهم في القصر ، كما يتولى الحكم فيهم (2)

– **مقدم الفراشية** أو « الفراش خانة » (3) : وهو المهتار المشرف على بيت الفراش الذي يحوي الفرش والخيام ، وغني عن البيان ان السلاطين في هذا العصر كانوا شديدي الحاجة إلى هذه الخيام التي كانت تضرب لهم في تنقلاتهم الكثيرة سواء في أزمنة الحرب أو في أوقات السلم ، وقد بلغت هذه الخيام وما يتبعها من اللوازم من الأهمية في حياتهم حتى خصصوا لها قسما من قصورهم ومشرفا يتولى تسيير العمال والصناع الموكلين بها .

– **الطشت دار (4) :** وهو المهتار المشرف على « الطشت خانة » (5) أي المكان الذي به طشت غسل الأيدي ، وطشت غسل الأقمشة ، كما يحوي « الطشت خانة » ملابس السلطان ومقاعده وسجاده الذي يصلي عليه . والعاملون بهذا الطشت يعرفون « بالطشت دارية » .

---

(1) النسوي : ص 243 .
(2) القلقشندي : 4 ، 21 .
(3) القلقشندي : 4 ، 11 .
(4) النسوي : ص 68 .
(5) القلقشندي : 4 ، 10 – 11 .

– **مقدم الجاويشية** (1) : وهو المشرف على الجاويشيّة (جمع جاويش – لفظ تركي بمعنى جندي من رتبة بسيطة يكلف بقضاء الشؤون وتبليغ الرسائل) (2) ومن مهام مقدم الجاويشية أنه يعلن عن قدوم السلطان ويفسح الطريق أمامه أو أمام عربته ، ويرفع صوته منوها بشخصية السلطان ومحامده (3)

– **السـاقي** : وهو الذى يمد الاسمطة ويقطع اللحم ويقدم الماء والمشروبات (4) بعد رفع الأسمطة ، ويعتبر عادة أميرا من الأمراء .

– **الجاشنكير** : هو الذى يقوم بذوق الأطعمة قبل أن يتناول منها السلطان أو الأمراء خوفا من أن تكون قد وضع فيها السم (5)

– **أستاذ الدار** أو « الاستادار » : هو الذي يتولى الانفاق على مختلف بيوت السلطان من مخابز ومطابخ واصطبلات ويدفع جرايات الحاشية أو كما كانت تسمى « جامكياتهم » (6) ، ويعد ما يلزم من نفقة وكسوة لكل من في بيت السلطان وتصرف إليه الأموال من الخزانة العامة أو من واردات الولايات بمقدار معين ، يمكن من غيره إن احتاج إلى ذلك (7)

– **الحاجب** : هو وظيفة وجدت في هذا العصر كما وجدت في العصور التي قبله أعني منذ عهد الدولة الأموية ، ومهمة الحاجب تشبه إلى حد كبير مهمة الأمين العام أو رئيس الديوان ، فهو الذي ينظم مقابلات السلطان لمن أراد الدخول عليه بحسب أهمية مراكزهم ، وارتقت وظيفة

---

(1) النسوي : ص 214 .
(2) المقريزي ، كتاب السلوك : 1 ، (3) ، 870 : الهامش عد د2 .
(3) (جاويش : Voir) و R. Dozy : suppl. Dict. Ar. Tome I, P. 169
(4) القلقشندي : 5 ، 454 .
(5) القلقشندي : 5 ، 460 .
(6) النسوي : ص 294 .
(7) القلقشندي : 5 ، 457 .

الحاجب بتطور الحضارة الاسلامية، فصار مستشارا في كثير من أمور الدولة منذ عهد الفضل ابن الربيع حاجب الرشيد (1)

هذه هي جملة من أهم الوظائف التي عرفتها قصور السلاطين في هذا العصر ، على أن هذه الوظائف قد كانت نتيجة « للخانات » أو البيوت التي كانت تابعة لقصور هؤلاء السلاطين وأهم هذه البيوت :

— « **الشراب خاناه** » أو بيت الشراب : وهو البيت يشتمل على شراب السلطان الخاص وعلى الأواني النفيسة المعدة لذلك، ويشرف على هذا البيت أمير يعرف « بمهتار الشراب خاناه » وتحته غلمان يعرف الواحد منهم « بشراب دار »

— « **الطشت خاناه** » أو بيت الطشت : تقدم الحديث عنه وعما يحويه.

— « **الفراش خاناه** » أو بيت الفراش : تقدم الحديث عنه أيضا .

— « **السلاح خاناه** » أو بيت السلاح : ويشتمل على أنواع الأسلحة ويتبعه عدد من العمال يعملون في أعداد الاسلحة واصلاحها .

— « **الركاب خاناه** » أو بيت الركاب : ويشرف عليه مهتار ، ويشتمل هذا البيت على ما يلزم الخيول من سروج نفيسة ومن لجم وغيرها من نفائس العدد والمراكيب مما يحير العقول ويدهش البصر (2)

— « **الحوائج خاناه** » أو بيت الحوائج : وهو عبارة عن مخازن لمواد الطبخ من زيوت وحبوب وتوابل، وكذلك مذبحة يصدر عنها اللحم للمطبخ السلطاني ولأرباب الرواتب الذين ملأت أسماؤهم الدفاتر .

— « **المطبخ** » : وهو البيت الذي يطبخ فيه طعام السلطان ، ويشرف عليه الاستادار (وهو من الأمراء) وتحته المشرف . ويسمى كبير الطباخين « اسباسلار »

---

(1) حسن ابراهيم حسن : ص 162 — 166

(2) القلقشندي : 4 ، 12 .

— « **الطبلخاناه** » : أو بيت الطبل : ويحتوى على الطبول والأبواق وما يتبعها من الآلات ، ويشرف على ضرب الطبول كل ليلة أمير يعرف « بأمير علم » سواء في الحضر أو السفر . والحافظ لهذا البيت هو مهتار الطبلخاناه ، وتحته عدد من الموظفين مثل : « الدبندار » وهو الضارب على الطبل ، و « المنفّر» وهو النافخ في البوق و « الكوسّي » وهو الذي يضرب بالصنوج النحاسية (1)

هذه هي الأوضاع التي كانت على منوالها تجرى حياة القصور ، وفي هذا دلالة كافية على المقادير المالية اللازمة ، والتي تتطلبها هذه الحياة ، ولا ننسى أن قصور الوزراء والأمراء وحكام المقاطعات هي الأخرى تمشي على نفس النسق من الأبهة والزينة ، وتحاول باستمرار أن تقلد السلاطين في أعمالهم وفي طرق عيشهم ، وخصوصا اذا ما استفحل أمرهم . وشعروا بالقوة ، وتمكنوا من الإستقلال عن السلطنة .

3) الحيـاة الثقـافية في عصر الرازي

إن الدارس لهذا العصر ليشتد استغرابه حينما تفضي النتائج إلى الاختلاف الكبير بين ما الت إليه الأوضاع السياسية والإجتماعية من ناحية ، وما الت إليه الأوضاع الثقافية من ناحية أخرى ، ذلك ن هذا العصر بقدر ما شهد من اضطرابات وقلاقل سياسية ، وبقدر ما شهد من مظالم وتفكك اجتماعي ، كانت له — بقدر كل ذلك — ميزته الثقافية التي لا تقل بهاء عن العصر السابق عليه ، والعصر اللاحق له (2) .

والواقع أنه يمكن القول — دون تحفظ كبير — بأن الازدهار الثقافي الذي عرفه العصر السابق على عصر الرازي ، يعتبر هذا العصر امتدادا له ، واستمرارا لأنفاسه ، ذلك أن مشعل المعرفة قد انتقل بنفس الاضاءة تقريبا

(1) انظر فيما يتعلق بالبيوت التابعة لقصور السلاطين القلقشندي : 4 ، 9 — 13 .
(2) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 373 .

إلى هذا العصر ، وإذا صح أن يطلق على العصر السابق بأنه عصر الغزالي وعصر الزمخشري ، فان هذا العصر يصح بصدق أن يسمى بعصر الرازى ، لأن معارف هذا الإمام التي جعلت منه عالما موسوعيا تعد نموذجا صافيا من الثقافة في هذا العصر .

وإذا كان من الناحية الأدبية قد شهد مقدم هذا العصر موت :

عمر الخيام سنة 515 / 1121

وازرقي سنة 525 / 1130

ومسعود بن سعد سنة 526 / 1131

وأديب صابر سنة 538 / 1143

فانه قد ولد فيه :

فريد الدين العطّار ولد سنة 514 / 1120

ونظامي الكنجوي ولد سنة 535 / 1140

وقد عاش فيه من الشعراء والكتاب أمثال :

سنائي : الشاعر الصوفي ، وصاحب « حديقة الحقائق »

ونظامي عروضي السمرقندي : صاحب « جهار مقالة » (المقالات الاربع)

ورشيد الدين الوطواط : الشاعر الكبير ، صاحب كتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر »

والأنوري : شاعر سنجر السلجوقي ـ والعالم في الفلك ـ وغيرهم كثير .

واذا كانت حلقات هذا العصر من الوجهة الثقافية تعتبر وثيقة الاتصال بالعصر الذي قبله ، فان أمرا اخر يربط بين العصرين ، ويعد عاملا أساسيا فيما لاقته المعارف والعلوم من ازدهار وتشجيع ، ويعود ذلك العامل إلى تنافس السلاطين وأرباب النفوذ في تشجيع العلماء والأدباء ورعايتهم

والاغداق عليهم ، وكان ذلك بحكم ما يطمح إليه هؤلاء الحكام من إحاطة دولهم بكل مظاهر العظمة ، ومن العظمة أن تكون للدولة علماؤها وأدباؤها وشعراؤها الذين يتغنون بمحامدها ويخلدون مآثرها ، ولهذا نجد أن أغلب تنقلات العلماء والأدباء انما يكون عادة بدافع المغريات وتحت تأثير ما يبذل لهم من السلاطين حتى ينتزعوهم من منافسيهم ، ويستأثروا بهم دون سواهم ، كالذي حدث مثلا في الدولة الخوارزمية للعالم الطبيب : زين الدين أبي ابراهيم اسماعيل بن حسين الحسيني (1) الجرجاني المتوفى سنة 531 / 1137 الذى أقام بخوارزم منذ سنة 504 / 1110 عندما دعاه إليها قطب الدين محمد الخوارزمي (490 / 1096 — 521 / 1127) وتمادت إقامته بها إلى وفاته ، وألف في ظل الخوارزميين كتابه الشهير في الطب الذي أطلق عليه تخليدا لهم اسم « ذخيرة خوارزمشاهي » (2) بالفارسية ويقع في اثني عشر مجلدا ، ويبحث هذا الكتاب في الأمراض المختلفة وتشخيصها ، كما يبحث في الأدوية والسموم وغيرها (3) . وكالذي حدث في هذه الدولة نفسها في ولاية علاء الدين محمد (الخوارزمي) (596 / 1199 — 617 / 1219) للشريف شرف الدين اسماعيل الطبيب العالي القدر الذي يتقاضى من هذه الدولة مرتبا شهريا مقداره ألف دينار ، وقد ألف هو أيضا كتاب **الذخيرة الخوارزمشاهية** في الطب (بالفارسية ، 12 مجلدا) وله كتب أخرى في نفس العلم (4) ، وكان من أنواع التشجيع التي قام بها السلاطين أنهم كانوا يعظمون العلماء ، ويرفعون من مقامهم في نظر العامة ، وتحدثنا بعض المصادر أن علاء الدين محمد كان يأتي بنفسه للامام فخر الدين الرازي (5) كما كان يحضر دروسه في جملة من يحضر من التلاميذ وعامة طلاب العلم ، وبناء على ذلك أصبح الشيخ لا يتهيب تلميذه ، ولا

(1) الاعلام ، للزركلي : 1 ، 308 .
(2) ظن صاحب كشف الظنون ان الجرجاني قد الف كتابه المذكور لعلاء الدين تكش ، ولعله خطأ منه لان ولاية علاء الدين تكش كانت بين : 568 / 1172 و 596 / 1199 في حين أن الجرجاني قد مات قبل ولايته بـ 37 سنة . كشف الظنون : (1) ، 2 ، 24 8 .
(3) د . شفق : ص 124 .
(4) ابن أبي اصيبعة : 2 ، 31 — 32 .
(5) نفس المصدر : 2 ، 23 . وكذلك السبكي : 5 ، 35 .

يتحاشى أن يخاطبه بلغة عادية عارية عن التملّق والاستكانة ، مما اعتبره البعض في جانب السلطان نوعا من الخشونة (1) ، ويقبل السلطان ذلك دون أية غضاضة .

وبلغ التعظيم من بعض هؤلاء السلاطين إلى درجة أن أحدهم كان يأخذ مداس الفخر الرازي ويضعه في كمه (2) عندما يأتي لحضور دروسه . ويعقب الصفدي على هذا الكلام بقوله : « وإذا كان السلطان كذلك كيف لا يرغب أهل العلم ويزدادون نشاطا ويجتهدون في طلب الغايات » (3) ومما يعد ضربا من التشجيع للعلم وأهله حضور السلاطين والحكام في مجالس المناظرات التي كانت تنعقد من وقت لآخر (4) ، ويستعد لها هؤلاء العلماء ليظهر كل سعة علمه ومقدرته ، فكانت هذه المجالس بمثابة حلبات السباق التي يتميز فيها أصحاب المقدرة والذكاء فينالون بذلك مراتب سامية في الدولة ، واحتراما وتبجيلا من ولاة الأمور .

ورغم أن حكام هذا العصر — كلهم تقريبا — من أصل تركي ، فان اقبال البعض منهم على العلم ودروس العلماء — كما أسلفنا — وانتساب البعض منهم إلى الأدب والشعر ، قد عد من خير المشجعات للثقافة في هذا العصر ، ويتأثر الملوك بالعلماء ويهتدون بهديهم أحيانا ، كالذي حدث لغياث الدين الغوري الذي كان من الكرامية ، ثم تشفع تحت تأثير الفقيه الشافعي : وحيد الدين محمد بن محمود المَرْوَروذي ، وبسببه بنى غياث الدين هذه المدارس للشافعية كما بنى مسجدا بغزنة (5) .

كما شرف ميدان الأدب في هذا العصر بانتساب بعض الملوك للشعر واعتبارهم في مصاف الشعراء وقد خصص عوفي (6) قسما للشعراء

---

(1) الخوانساري : ص 701 .
(2) الصفدي : 4 ، 254 .
(3) نفس المصدر .
(4) ابو الفداء : 3 ، 96 . وكذلك ابن الأثير : 12 ، 151 .
(5) ابن الأثير : 12 ، 154 .
(6) هو محمد بن محمد (سديد الدين) البخاري المتوفي سنة 630 / 1232 . انظر :
Ecn. de l'Islam Tome I, P. 786-787

الملوك من كتابه : « **لباب الألباب** » وذكر عوفي من جملة هؤلاء الملوك : علاء الدين حسين الغوري الذي تداولت ديوانه بعد موته أيدي الناس في شمال الهند وفي زابلستان (1) .

بهذه الألوان من التشجيعات وبغيرها أفادت الثقافة في هذا العصر ، فكان وضعها مباينا تمام التباين من حيث الرقي والازدهار لما عليه الوضع السياسي من ناحية ، والحالة الإجتماعية من ناحية أخرى .

الحركة العلمية :

قبل الحديث عن العلوم التي راجت في هذا العصر يحسن أن تقع التقدمة لذلك بالحديث ولو اجمالاً عن اللغة أو اللغات المستعملة سواء في الميدان العلمي أو ميدان التخاطب .

عرف هذا العصر بظاهرة الإزدواجية في اللغة العلمية المستعملة فيه بالاضافة إلى لغة ثالثة هي لغة التخاطب حسبما يبدو . أما اللغة العلمية فيظهر أنها كانت اللغة العربية أولا ، ثم الفارسية في درجة بعدها ، وإنما حازت العربية هذه الدرجة دون سواها ، وكانت الطاغية حتى على الفارسية ، لأنها – كما هو معروف – لغة المصدر الأول للمسلمين الذي إليه المرجع في الثقافة الإسلامية ، وهو القرآن المجيد ، يضاف إليه المصادر الأخرى التي ألفت بالعربية في مختلف العلوم الإسلامية من حديث وتفسير ، وفقه ، وأصول ، ولغة ، وفلسفة ، وغيرها . فوجود هذه المصادر مؤلفة بالعربية قبل هذا العصر ، قد فرض العربية كلغة علمية وحتم استمرارها على أهل هذا العصر ، وفي هذه الرقعة التي عاش فيها الرازي من البلاد الاسلامية . ولكن هذا كله لم يمنع أن تكون إلى جانب العربية لغة ثانية – تشاركها الميدان العلمي وتكون مشاركتها أكبر في الميدان الأدبي – هي اللغة

---

(1) انظر Enc de l'Islam Tome II, P. 1129 (Art. ghurides Par C.E. Bosworth)

الفارسية التي ألفت بها عدة كتب وخصوصا في الفلسفة بالنسبة للعلوم من ذلك مثلاً (1) كتاب الرازي « **تهجين تعجيز الفلاسفة** » وكتابه « **البراهين البهائية** » وكتابه الآخر « كتاب الخمسين في أصول الدين » (2) وأما استعمال الفارسية في ميدان الشعر والأدب وما يتبع ذلك من نقد ومنتقيات وطرائف فقد طفح هذا العصر بمثل هذه الكتب ، وما من أحد قال الشعر في هذا العصر تقريبا الا كان له شعر بالعربية وشعر بالفارسية وقد روت المصادر هذا عن أغلب من ترجم لهم من أهل هذا العصر سواء في ذلك أرباب الدواوين الشعرية أو المقلون مثل الفخر الرازي الذي كانت له بعض أشعار منها ما هو بالعربية ومنها ما هو بالفارسية (3) وكذا الحال بالنسبة لدروس الوعظ فقد كانت تلقي على العوام وغيرهم بالعربية وبالفارسية ، فالرازي نفسه كان يعظ باللغتين (4) وأما اللغة الثالثة التي عمت البلاد تقريبا في هذا العصر وأصبحت لغة التخاطب بين الجماهير فهي اللغة التركية أو بعض لهجات منها ، فقد بدأت هذه اللهجات تتسرب إلى بلاد الاسلام بتسرب القبائل التركية التي سلف الحديث عنها ، وتمكن أمر هذه اللغة باستيلاء هؤلاء الأتراك على الحكم منذ انقراض البويهيين وحلول السلاجقة الأتراك محلهم .

أما العلوم التي راجت في هذا العصر فهي على نوعين :

علوم إسلامية من تفسير وحديث وفقه وأصول الدين وفلسفة وما يتبعها من منطق وأصول الجدل ويتبع هذه العلوم الاسلامية — باعتبارها الات تستخدم فيها — علوم اللغة العربية من نحو وبلاغة واشتقاق ومخارج الحروف وغيرها .

---

(1) القفطي : ص 293 .

(2) انظر براون : 2 ، 615 . فقد ذكر كتابا آخر من كتب الرازي المؤلفة بالفارسية وهو كتاب الاختيارات العلائية الذي ألفه لعلاء الدين محمد (الخوارزمي) .

(3) ابن أبي اصيبعة : 2 ، 29 .

(4) اليافعي : 4 ، 8 .

وعلوم تجريبية كعلم الطب والهندسة والحساب والفلك والكيمياء وغيرها من هذه العلوم التي لاقت رواجا وانتشرت انتشارا لا يقل عن انتشار العلوم الإسلامية .

على أن الواقف عندما ألف في هذا العصر من تآليف في مختلف العلوم الرائجة يدرك سريعا أن لهذا العصر خصائصه التي قد يتميز بها عن باقي العصور الأخرى ومن أهم هذه الخصائص :

ظاهرة الموسوعية في المعارف والمؤلفات ، فأكابر علماء هذا العصر – وفي طليعتهم الرازي (1) – يتصفون بهذه الموسوعية (1) وأعني بذلك أنهم لم يختصوا بعلم من العلوم وإنما اختصوا بجل علوم العصر ولا يقتصر الأمر على العلماء وحدهم فمن الشعراء والأدباء من لهم مشاركة في العلوم ، فالأنوري الذي يعتبر من أكابر شعراء العصر لم يكن أديبا فقط ، بل كان بالإضافة إلى ذلك عالما بالفلك (2)

كما اتسم قسم من مؤلفات هذا العصر بالموسوعية التي لا تكاد تعرف لها سابقة في عصور ماضية ، أعني بذلك كتب التفسير مثلا وفي طليعتها التفسير الكبير أو « **مفاتيح الغيب** » للامام الرازي ، فالمطالع له أو لجزء منه يقضي العجب مما فيه من علوم ومعارف ، حتى انغلق الأمر على بعضهم فقال : فيه كل شيء إلا التفسير – فرد عليه اخر بقوله : ما الأمر كذا إنما فيه مع التفسير كل شيء (3) ومن أجل هذه الموسوعية وصفه ابن خلكان بأن الرازي جمع فيه كل غريب وغريبة وبأنه كبير جدا (4) ولعل كبره هذا هو الذي أوحى لبعضهم بأن الرازي لم يتمه وانما أتمه نجم الدين

---

(1) ابن العبري : ص 418 . (فقد ذكر أن الرازي بذ القدماء في عدة علوم) وكذلك الذهبي ، انظر ، الميزان : 3 ، 340 ، عدد 6686 . (برغم نفيه عن الرازي المعرفة بالحديث فقد اعترف له بانه راس في الذكاء والعقليات .)
(2) الدكتور شفق : ص 91 – 93 . وكذلك حمدي : ص 86 .
(3) الصفدي : 4 ، 254 .
(4) ابن خلكان : 3 ، 381 .

القمولي (1) المتوفى سنة 727 / 1326 ، وقد اطلع المرحوم محمد الطاهر ابن عاشور على مثل هذا المعنى في كشف الظنون فكتب في فهرست مكتبته الخاصة عند ذكر تفسير الفخر الرازي بالطرة ما يأتي : وغلط صاحب كشف الظنون فقال : انه لم يتمه (يعني الرازي) وانما أكمله بعض العلماء من بعده ، وقد ألبس عليه بكتاب اخر في علوم القران للمؤلف اه . وليس المجال الآن للحديث عن هذا التفسير الضخم للرازي بخصوصه وانما لزم ذكره باعتباره ثمرة من ثمار الثقافة في هذا العصر ، بل من أبرز ثمرات هذا العصر ، وليس ذلك يعني أنه لا وجود لما يضاهيه في علوم أخرى غير التفسير ، بل الواقع يشهد أن صبغة الموسوعية قد تطرقت حتى إلى كتب النحو والفقه والفلسفة وذلك لازم من لوازم الطريقة الجديدة التي أصبحت متبعة في هذا العصر وهي الطريقة الفلسفية التقريرية ، وقد نسب غير واحد هذه الطريقة للفخر الرازي وعده بعضهم أول من ابتدعها (2)

وسواء اصح ما قيل ام لم يصح ، فان هذه الطريقة قد لاقت رواجا كبيرا في هذا العصر ، لذا تحتم ان تفرد لها كلمة .

الطريقة التقريرية :

هي طريقة تعنى بالتقسيم والتفريع ، وتفريع التفاريع حتى لا تبقى شاردة ولا واردة،وبذلك يمكن أن تسلط عليها أدلة السبر والتقسيم،وتمكن المجادلة فيها والاحتجاج لها أو عليها . ومسايرة طلاب العلم للمدرسين أو للمؤلفين في كتبهم بهذه الطريقة مما يشق ويعسر ، وكثيرا ما تحصل به الصدمة لرواد المعرفة ، وذلك أنها تشتت عليهم مداركهم بتزاحم الفروع وتكاثر الجزئيات ، فيفلت منهم أصل المسألة وبضياعه يضيع الباقي .

---

(1) ابن حجر : 1 ، 324 – 325 .

(2) الصعيدي : ص 225 .

وهذه الطريقة وإن اعتبرت دليلا على التوسع والثراء العلميين، فاستحسنها بعضهم واتخذ منها دليلا على الرقي العلمي والنباهة العقلية، لأنها تقتضي التتبع والتثبت في كل الجزئيات والتدليل على كل الاحكام ، فان البعض الآخر من العلماء قد عابها واعتبرها مظهرا من مظاهر الترف العلمي لا يختلف في كثير عن الترف الحضاري الذي يحيق بالأمم فينذر بالانحلال والتفسخ الذين يعقبهما الانهيار . فكذلك هذا الترف العلمي المتولد عن هذه الطريقة فإنه يجعل طلاب العلم شغوفين بالجزئيات والقولات التافهة أحيانا، فتضيع منهم أصول العلوم التي عليها المعول ومنها المنطلق لكل بناء جديد ، وبها قوام كل فهم سديد .

ومما هو واقع لا يحتاج إلى برهان أن هذه الطريقة التقريرية قد انتشرت انتشارا واسعا شمل جميع العلوم الاسلامية تقريبا ، وجميع المؤلفات التي وضعت فيها عدا النزر القليل ، وذلك ابتداء من القرن السادس أو بالأحرى ابتداء من عصر الرازي واستمرت معمولا بها إلى القرن الرابع عشر من الهجرة في جميع المعاهد والمدارس الاسلامية وفي مختلف أصقاع بلاد الاسلام ، فعانى منها طلاب العلم كل معاناة وأفنوا الأعمار في تقييد الشوارد وضبط الجزئيات بما لو بذل مثله من الطاقة في البحث الصحيح سواء في العلوم النظرية أو التجريبية لتبدل وجه هذه القرون التي عاشها العالم الإسلامي في تدل ثم في انحطاط .

وأنا ممن أدرك الاثار التي يجنيها طلاب العلم من هذه الطريقة ، فقد كانت تدرس بها مادة النحو مثلا في الزيتونة على نفس المنهج الذي كان يتبع في الأزهر وفي القرويين ، وكان الطلاب يتبحرون في هذه المادة إلى درجة الإحاطة الكاملة بقواعدها وبفلسفاتها ، ولكن ذلك كله كان لا يعصمهم من الوقوع في الاخطاء البسيطة التي يتحاشاها التلميذ العادي في مبتدأ تعليمه ولا ينجو من ذلك الا من طال باعه وأخذ نفسه بالفطنة . وما قيل في مادة النحو ينطبق تماما على سائر المواد الأخرى مما كان يدرس في هذه المعاهد الاسلامية — ويبدو لي أن هذه الطريقة لها محاسنها ولها مساويها ، ولكي تتم الاستفادة منها وتوقّى أخطارها يجب أن تخصص

مؤلفاتها وطرق التدريس بها في مستوى معين لطلاب العلم هو أعلى مستوى ، بعد أن يمر هذا الطالب ببقية المستويات فتتركز عنده أصول العلوم ، التي منها ينتقل إلى التوسع والتتبع واستقراء الجزئيات التي تستلزمها الطريقة الاستقرائية . ويتأتى هذا عندما تكون الحركة التعليمية موجهة ومنظمة لتنتفع كل المستويات بما يناسبها من الطرق المفيدة دون سواها . وبعد هذا فان هذه الطريقة التي اعتبرت من بنات هذا العصر،وسواء صحت نسبتها إلى الفخر الرازي باعتباره أول من ابتدعها وأول من أدخلها في سائر العلوم من تفسير ونحو وبلاغة ، أو لم تصح ، فإن الرازي لا يتحمل وزر ما آلت إليه هذه الطريقة فيما بعد،عندما أساء الناس استعمالها والاستفادة منها ، فقد اعترف لكتب الرازي التي اتبعت هذه الطريقة التقريرية بأنها خالية من الحشو والتعقيد وسوء التأليف (1) .

وإذا ما غلب على المؤلفات — التي اتبعت هذه الطريقة فيما بعد — سوء التأليف وكثرة الحشو والتعقيد،فإن ذلك لا يحمل على العصر الذي انبثقت منه ولا على صاحبها الذي ابتدعها ، وانما يحمل على من أساؤوا فهمها واستعمالها .

وغاية ما في الأمر أن انتشار هذه الطريقة قد صرف الكثير من العلماء عن الابتكار في موضوعاتهم ، وصارت هممهم مقصورة على تصانيف الغير ، يختصرونها ، ويفصلونها ، ويهذبونها ، ويوضحونها ، وان لزم الأمر يؤولونها ويتصرفون فيها بالتبديل والتغيير ، وقد عيب على الرازي نفسه مثل هذا (2)

وهذه ظاهرة يمكن أن تعد من آثار هذه الطريقة في هذا العصر بالخصوص ، تسربت منه إلى العصور الموالية ، والشواهد على ذلك كثيرة ، ويمكننا أن نقف على شيء منها في كتب الرازي مثل كتابه الذي سماه

---

(1) الصعيدي : ص 226 .
(2) الخوانساري : ص 701 .

« **دراية الاعجاز** » فقد كان مختصراً لكتابي عبد القاهر الجرجاني وهما « **دلائل الاعجاز** » و « **اسرار البلاغة** » وقد خالف الرازي طريقة عبد القاهر واستبدل بها طريقته التقريرية (1) ، ومثل كتابه « **شرح الاشارات** » على اشارات ابن سينا ، وكذلك الشأن في كتبه التي ألفها في علم الكلام . (2)

أما العلوم التي كان لها رواج أكثر من غيرها في هذا العصر فهي :

– تفسير القرآن الكريم :

صار التفسير في هذا العصر من أهم العلوم التي لا يتمكن منها الا أرباب المعارف الواسعة والنفس الطويل في ممارسة العلوم الاسلامية على مختلف أنواعها ، اذ يعتبر التفسير منبعا دافقا بكل هذه العلوم . وقد تطور التفسير في هذا العصر عما كان عليه في عصور سالفة ، وقد صنفه ابن خلدون صنفين : أولهما تفسير نقلي مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف ، والصنف الآخر تفسير يرجع فيه إلى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب،وعد من الصنف الأول تفاسير الطبري والواقدي والثعالبي ، كما عد من الصنف الثاني الكشاف للزمخشري (3) .

ويعتبر أحسن مثال للتفسير في هذا العصر تفسير الفخر الرازي « **مفاتيح الغيب** » أو « **التفسير الكبير** » وميزته الكبرى أنه موسوعة علمية جامعة لشتى العلوم والفنون وهذا ما حدا بالمستشرق المجري قولد تسيهر إلى التنويه به واعتباره خاتمة أدب التفسير المثمر الأصيل (4)

---

(1) الصعيدي : ص 226 .
(2) الخوانساري : ص 700 .
(3) ابن خلدون ، المقدمة : ص 366 – 367 .
(4) قولد تسيهر ، مذاهب التفسير : ص 146 .

ومن مميزات هذا التفسير التي حاز بها هذه المكانة ، وصار بها عنوانا صادقا على علوم هذا العصر ما يأتي :

1) الاهتمام ببيان المناسبات بين آيات القرآن والسورة .

2) الاهتمام ببيان أسباب النزول كلما تأتى ذلك .

3) الاستطراد للعلوم الرياضية والفلسفية والطبيعية ، مع مناقشة الفلاسفة(1)

4) التصدي للرد على المعتزلة باعتبار أن مؤلفه سني ، ولكن قولدتسيهر في مجلة Der Islam سنة 1912 يعتبر أن تفسير الرازي هذا لا يخلو من تأثير اعتزالي رغم شدته في مقاومة المعتزلة .

5) ذكر مذاهب الفقهاء والانتصار لمذهب الشافعي بحكم أن المؤلف شافعي المذهب .

6) الاستطراد للعلوم اللسانية من نحو وبلاغة ، وبصورة أوسع للمسائل الكلامية والعلوم الكونية حتى صار كتابه موسوعة في ذلك .

هذه هي أهم المميزات التي انطبعت بها كتب التفسير اجمالا في هذا العصر الذي اخترنا أن يكون نموذجا لها تفسير الرازي ، وهذه المميزات وان وجد بعضها في عصور قريبة سابقة الا أنها لم تكن بنفس التوسع والاستفاضة التي عرفها هذا العصر .

– علم الكلام :

يكاد يكون الرواج الذي حظي به هذا العلم في هذا العصر منقطع النظير،سواء في الأعصر السابقة أو اللاحقة على وجه العموم ، ووفرة الكتب التي ألفت في ذلك تشهد بهذه الحقيقة ، ويمكن أن نعد منها للرازي وحده ما لا يقل عن أربعين كتابا (2)

---

(1) انظر : S.H. Kramers, Hand worter buch der Islam p. 612

(2) النشار ، مقدمته على كتاب الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص 27–30 .

ومن المعلوم أن مسائل هذا العلم التي تبحث في عظمة الذات الالهية وتنزيها وفي مسائل الحشر والمعاد وفي صفات الأنبياء والرسل ، قد كانت تمثل قسما من أبواب الفقه يطلق عليه لتمييزه اسم « الفقه الأكبر » ثم لما أخذ العلماء مسائل هذا العلم بالتوسع فيها والنظر في أدلتها،استقلت عن علم الفقه،وصارت تعرف بعلم التوحيد أو علم الكلام أو علم أصول الدين .

فقد كان الصدر الأول من الصحابة وتابعيهم يطمئنون كل الإطمئنان في عقيدتهم بالاستناد إلى نصوص الكتاب والسنة دون جدال ودون إثارة للشبهات، بل كانوا يذهبون إلى أبعد من هذا،فيعتبرون إثارة الجدل فيها ضربا من النزق والابتداع في الدين ، ثم حدث ما غير مجرى الأمور بسبب دخول أقوام كثيرة ومتباينة في الاسلام،ومعها ثقافات وعلوم كان يتحاشاها المسلمون الأوائل،من أهمها الفلسفة بما تحمل من معتقدات نابية عن روح العقيدة الاسلامية . فانجرت العقيدة الاسلامية أو علم الكلام إلى مسايرة هذا التيار الجديد ، فنشا الخلاف في الاتجاه لدى المسلمين :

بين محافظ على ما سنه السلف الصالح من التمسك بالنصوص الشرعية النقلية، واتخاذ الحجة منها دون سواها، وهذا ما ارتضاه أهل السنة والجماعة حتى جاء الاشعرى فأضاف إلى منهج هذه الطريقة الاستدلال العقلي ، ولكن دون اعتباره في المرتبة الأولى وانما هو معضد ومؤيد للدليل النقلي فحسب . وبين منساق في تيار الفلسفة بدعوى الوقوف في وجه الضلالة ومحاربة أهل الزيغ بسلاحهم ، وقد تعمق هذا الفريق من أرباب علم الكلام في دراسة العلوم الفلسفية متخذين منها أدلتهم،ومعتبرين أنها أحق ما ينبغي الاحتجاج به ، حتى اذا ما تعارض منهجهم الفلسفي العقلي هذا مع بعض الادلة النقلية عمدوا إلى تأويلها بما يتماشى مع ما يريدون ، وكل ما يريدون هو أن يكون للعقل السلطان الأول ، وأصحاب هذا المنهج هم المعتزلة .

والتباين بين المنهجين المذكورين كبير جدا ، واستمر كذلك إلى أن جاء الأشعري ، وقد كان معتزليا فترك الاعتزال واعتنق مذهب أهل السنة ، وقد أفاد من تجربته الاعتزالية بأن أدرك ما عليه القوم (المعتزلة) من إفراط في الاعتداد بالعقل والاعتماد عله ، واختار الأشعري مذهبه المعتدل

بين شدة المحافظة التي عليها أهل السنة،وشدة التنكر للادلة النقلية التي عليها المعتزلة ، فكان المنهج الثالث الذى أصبح يعرف بمنهج الأشاعرة ويقوم على الأخذ بالدليلين : النقلي أولاً ثم العقلي ثانيا .

قدمنا بهذا كله، قصد أن نصل إلى ما صار إليه علم الكلام في هذا العصر، وقصد أن نثبت الترابط بين ماضيه وحاضره،وما آل إليه أمر هذا الحاضر . فالجديد بالنسبة لعلم الكلام في هذا العصر وابتداء من عصر أبي حامد الغزالي،هو ان علم الكلام امتزج امتزاجا كبيرا بالفلسفة ، وأكبر شاهد على ذلك كتاب « **تهافت الفلاسفة** » للغزالي الذى ألفه للرد على من خلعوا ربقة الدين بفنون من الظنون وكان مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطا طاليس وأمثالهم (1) وكان من اللازم لاظهار ضلال من خلعوا ربقة الدين،أن يرد الغزالي لا عليهم باعتبارهم مقلدين تابعين،ولكن على الفلاسفة أنفسهم لاظهار ما ذهبوا إليه ، ولهذا نجده يقول في نفس هذا الكتاب : (فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضا على هؤلاء الأغبياء ابتدأت بتحرير هذا الكتاب ردا على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت عقيدتهم وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء) (2)

وأغلب الظن أنّ الفخر الرازى قد سار على نفس المنهج في العديد من كتبه التي ألفها سواء في علم الكلام أو في الفلسفة. نذكر منها بالخصوص كتابه « **تعجيز الفلاسفة** » أو كما سماه بعضهم « **تهجين تعجيز الفلاسفة** »(3) وهو بالفارسية .

فلا عجب بعد هذا ان نجد ابن خلدون يعتبر أن ادخال الرد على الفلاسفة في العقائد هي طريقة جديدة مخالفة للاصطلاح القديم (4) ،

---

(1) الغزالي ، تهافت الفلاسفة : ص 2 .
(2) الغزالي ، تهافت الفلاسفة : ص 3 .
(3) القفطي : ص 293 .
(4) ابن خلدون ، المقدمة : ص 389 .

وقد برع فيها الغزالي والامام ابن الخطيب (يعني ابن خلدون الامام الرازي) لأن كتبهما ليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة المتأخرين من بعدهم (1) .

- الفقـه وأصول الفقـه

الفقه علم إسلامي صميم ، وقد تدرج هذا العلم منذ نبعته من الكتاب والسنة في مدارج الرقي،وانتشر انتشارا بين الخاصة والعامة لم يكن له نظير في العلوم الأخرى ، وكانت له مدارسه واتجاهاته التي لا يسمح المقام بتفصيل القول فيها ، وغاية ما نروم ذكره في هذا المقام أن بلاد العجم في عصر الرازى،قد عرفت عناية بالفقه لا تقل عن عناية بقية بلاد الاسلام ، اذ كان فيها أعلام من الفقهاء على المذهبين الشافعي والحنفي بالخصوص ، وأما الحنابلة فهم أقل من ذلك بكثير ، في حين لا يكاد يذكر أحد من المالكية ، حتى أن ابا الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي المتوفى سنة 395 / 1004 (2) من أكابر أئمة اللغة وصاحب « المجمل في اللغة » عندما ترك مذهبه الشافعي وقلد مذهب مالك وسئل عن ذلك قال : دخلتني الحمية لهذا الامام (المقبول على جميع الألسنة) أن يخلو مثل هذا البلد عن مذهبه (3)

فهذه القولة من صاحبها وان كان متقدما على العصر الذي نتحدث عنه الا أنها تدل على عدم انتشار المذهب المالكي — على اقل تقدير — في بلاد العجم،ومن يتتبع تفسير الرازي يدرك — من كثرة ردوده على الحنفية بالخصوص — ما قلناه من أن المذهبين المنتشرين بين سكان بلاد العجم هما المذهبان الشافعي والحنفي ، وقد كانت المعارك سجالا بين اتباع المذهبين ، ويدخل في ذلك العامة أحيانا فتنقلب المعارك العلمية إلى فتن ضارية،وقد

---

(1) نفس المصدر .

(2) الزركلي : 1 ، 184 .

(3) بغية الوعاة : 1 ، 352 ، عدد 680 . والاضافة بين معقفين من دائرة المعارف القرن العشرين : 4 : 141 .

تقدمت الإشارة إلى ذلك فيما سلف فلا فائدة في التكرار . إنما الذي تنبغي الإشارة إليه أن درجات الفقهاء في هذا العصر لم تبلغ مراقي الاجتهاد ، وانما هي درجات متفاوته في التقليد وحسن ادراك اقوال الائمة اصحاب المذاهب . وأما المؤلفات الفقهية فقد انطبعت هي الأخرى بالطريقة التقريرية التي تقدم الحديث عليها ، وكذلك كان الشأن بالنسبة لحلقات التدريس فيما يبدو ، وكثرة المناظرات في هذا العصر أكبر دليل على ذلك .

أما أصول الفقه الذي هو من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا لأنه عبارة عن القواعد التي بها يتوصل إلى استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية ، فأول من كتب فيه الامام الشافعي الذي أملى فيه رسالته المشهورة ، وكتب فيه الحنفية فبرّزوا على غيرهم لأنهم حققوا قواعده وبينوا أصوله ، كما كتب فيه المتكلمون الا أن طريقتهم فيه أميل إلى الاستدلال العقلي ، وبالتالي إلى المنحى النظرى أكثر من التطبيقي ، وقد كان لأبي زيد الدبوسي ، المتوفى سنة 1038/430 اليد الطولي في هذا العلم ، اذ كتب في القياس وتوسع فيه بما لم يسبق إليه (1) ولا غرابة في ذلك فهذا العالم من علماء الحنفية قد اتفقت الروايات على أنه أول من وضع علم الخلاف وابرزه إلى الوجود وكان يضرب به المثل في ذلك (2) : وله «**كتاب الاسرار وتقويم الادلة**» (3) ولعل هذا هو الكتاب الذي يعنيه ابن خلدون عند قوله كتب في القياس .

وأفضل ما ألف في أصول الفقه على طريقة المتكلمين كتاب «**البرهان**» لامام الحرمين 478 / 1085 ، «**والمستصفى**» للغزالي 505 / 1111 وكلاهما أشعري ، ونذكر من أفضل ما كتب المعتزلة في هذا العلم «**كتاب العهد**» للقاضي عبد الجبّار 415 / 1025 ، **وكتاب المعتمد**» وهو شرح لكتاب **العهد** لأبي الحسين البصري 436 / 1044 ، وتعتبر هذه الكتب الأربعة – على رأي ابن خلدون – قواعد هذا العلم وأركانه .

---

(1) ابن خلدون ، المقدمة : ص 380 .
(2) ابن كثير : 12 ، 46 .
(3) الزركلي : 4 ، 248 فقد عدهما كتابين لا كتابا واحدا كما فعل ابن كثير .

وقد عاش الاولان في أواخر القرن الخامس كما عاش الاخيران في أواخر الرابع وأوائل الخامس ، ولهذا عدّ كتاب الرازي الشهير في الأصول وهو « **كتاب المحصول** » تلخيصا للكتب الاربعة المتقدمة ، والرازي قد توفي سنة 606 / 1209 كما هو معلوم،وكذلك كان الشأن بالنسبة لسيف الدين الامدي 631 / 1233 الذي جاء بعد الرازي بقليل وألف كتابه « **الاحكام في أصول الأحكام** » . وقد اختلفت طريقة هذين الكتابين (أعني كتاب الرازي وكتاب الأمدي) فالرازي قد اتبع طريقته التقريرية فكان تأليفه على منهج المتكلمين اذ قد عني بالادلة والاحتجاج ، في حين أن الامدي قد عني بناحية أخرى لا تخرج عن الطريقة التقريرية ، هي ناحية تحقيق المذاهب وتفريع الفروع والمسائل (1) فجاء الكتابان بذلك متظافرين من جهة انهما قد لخصا الكتب الأربعة السابقة عليهما ، وجاءا متكاملين من جهة أن أحدهما اختص بالاستدلال . في حين أختص الآخر بالتفريع وتحقيق المذاهب ، والمهم في الامر آن هذين الكتابين قد أصبحا منطلقا لعدة مؤلفات في الأصول بعد هذا العصر،وهذه هي الميزة التي يجب أن تسجل لهذا العصر بكل فخار . ولقد لخص كتاب الرازي « **المحصول** » تلميذه سراج الدين الأرموي في كتاب سماه « **التحصيل** » كما اختصره تاج الدين الأرموي في كتاب سماه «**الحاصل**» ثم جاء شهاب الدين القرافي فأخذ من الكتابين مقدمات وقواعد في كتابه « **التنقيح** » (2) وقد فعل الامام البيضاوي مثيل ذلك في كتابه « **المنهاج** » ، وقد كان هذان الكتابان وما بالعهد من قدم يدرسان بأمهات المعاهد الاسلامية مثل الزيتونة والأزهر وقد وضعت عليهما شروح عديدة .

وعد **إحكام** الآمدي مصدرا أساسيا في هذا العلم مثل **محصول** الرازي ، فعمد أبو عمرو بن الحاجب 646 / 1249 إلى تلخيصه في كتابيه المختصر الكبير والصغير، واسم الأول « **منتهى الوصول والأمل في علمي الاصول**

---

(1) ابن خلدون المقدمة : ص 380 .

(2) انظر ابن خلدون ، المقدمة : ص 380 . فقد سماه التنقيحات .

والجدال » واسم الثاني « **مختصر منتهى الوصول والأمل** » (1) وقد كثر تداول المختصر لابن الحاجب بين طلبة العلم في المشرق والمغرب ووضعت عليه عدة شروح .

وقد عرف الحنفية من كتب الأصول بعد الدبوسي ما ألفه شيخ الاسلام البزدوي (2) 482 / 1089 وهو كتاب « **كنز الوصول** » المعروف بأصول البزدوي ، ثم جاء ابن الساعاتي الحنفي 694 / 1295 واستفاد ممن قبله وألف كتابه «**البدائع**» (3) فولع العلماء به ووضعت عليه عدة شروح

والذي نرومه من كل ما قلناه هو أن هذا العلم – علم أصول الفقه – يعتبر مدينا بتركيز قدمه في الوجود لهذا العصر الذي نتحدث عنه باعتباره واسطة بين العصر السابق الذي يعتبر ملحقا بعصر النشأة ، وبين العصر اللاحق الذي هو بمثابة عصر الانتشار والذيوع .

الحكمة والفلسفة :

اطلق عليها ابن خلدون اسم العلوم العقلية واعتبرها طبيعية للانسان بحكم أنه ذو فكر وجعلها تشمل أربعة أقسام : المنطق ، والعلم الطبيعي والعلم الالهي ، والعلوم الهندسية (من هندسة وعدد وموسيقى وهيئة) (4)

وقد سبق أن ذكرنا في معرض الحديث عن علم الكلام وما تميز به في هذا العصر . ان أكبر ظاهرة عرفت له هي ظاهرة امتزاجه بالفلسفة وما يتبعها من علوم ، وقد أشرنا فيما سلف إلى أن المعتزلة كأن لهم أكبر ضلع في هذا الامتزاج ، وبالتالي في انتشار علوم الفلسفة انتشارا عظيما حتى ولع بها الناس من سائر الطبقات تقريبا ، وصار العالم لا يسمي عالما عند

---

(1) سركيس : 1 ، 72 .
(2) الاعلام : 5 ، 148 .
(3) هكذا سماه ابن خلدون . وفي الاعلام : 1 ، 170 ، جاءت التسمية هكذا « بديع النظام الجامع بين كتابي البزدوي والاحكام » .
(4) انظر ابن خلدون ، المقدمة : ص 399 .

المعتزلة منذ القرن الثالث للهجرة تقريبا ما لم يجمع بين علوم الدين وعلوم الفلسفة وقولة الجاحظ (أحد المبرزين والمعتدلين في مذهب الاعتزال) في الجزء الثاني من **كتاب الحيوان** أكبر شاهد على ذلك ، قال : « لا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام ، متمكنا في الصناعة ، يصلح للرئاسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما » اه .

ولقد حصل شغف كبير بالعلوم الحكمية والفلسفية في هذا العصر وأقبل عليها طلابها اقبالا متزايدا، مما جعل كتب التراجم تعنى باثبات المشيخات فيها .

ولقد راجت هذه المادة في بلاد المشرق عموما وفي بلاد العجم خاصة . فكانت عنوانا على استحكام الحضارة فيها (1)

ولا يفوتنا — ونحن نتحدث عن هذا العلم في عصر الرازي — أن نشير ولى وفرة الكتب التي ألفت في ذلك فقد بلغ منها عند الرازي وحده بضعة وعشرين كتابا(2) من أهمها **كتاب المباحث الشرقية** ، و **شرح عيون الحكمة**، و **كتاب الانارات في شرح الاشارات** وكتب معاصري الرازي في هذه المادة أكثر من أن تحصى .

الطب :

كان الشغف بالطب في هذا العصر لا يقل عنه في العصر السابق ولا اللاحق، بل كان يعد لونا تكمل الثقافة لمن أراد أن يكون في مصاف العلماء المحترمين فهذا العلم كان معروفا قبل الاسلام في فارس القديمة وفي اليونان، الا أن الطبيب في بلاد اليونان وفي روما كذلك، كان وضيع القدر باستثناء بعض الحالات ، أما في بلاد فارس كما استفيد ذلك من وثائق

---

(1) ابن خلدون ، المقدمة : ص 401 .

(2) النشار ، مقدمته على اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص 30 — 32 .

قديمة (1) فقد كان يجالس الملوك ويتخذ مستشارا لديهم ، وكذلك استمر شأنه في عصر الرازي ، ودليل ذلك مكانة الطبيب اسماعيل بن الحسين الجرجاني المتوفى 531 / 1136 عند علاء الدين تكش الخوارزمي ، الذي ألف له كتابه الشهير « **ذخيرة خوارزمشاهي** » هذا الكتاب الذي اعتبره «بروان» مضاهيا لكتاب **القانون** لابن سينا إن لم يفقه شمولا وحجما (2) وينسب العديد من التطورات في ميدان الطب للمسلمين سواء في هذا العصر أو في الذي قبله أو الذي يليه . من ذلك :

المستشفيات أو كما كانت تسمى « البيمارستان » التي عرفت من حسن التنظيم ودقة سير العمل بها ما كان له أكبر فضل على تنظيماتنا العصرية،التي نعتقد أنها من ابتداع النهضة الاوروبية عن جهل أو عن خطإ فقد كان من هذه البيمارستانات ما هو للعمي،ومنها ما هو للامراض المزمنة، ومنها ما هو للّقطاء (وقد رتبت لهم المراضع بالليل والنهار) يشهد بذلك الكاهن اليهودي الرحالة المسمى بنيامين الطليطلي الذي زار بغداد سنة 555 / 1160 فوجد بها واحدا وستين (61) بيمارستانا على نحو هذا التنظيم وفي نفس هذه الفترة كان بشيراز بيمارستان هو قسم من جامعة لتدريس الطب والرياضيات والفلسفة (3) .

وقد ال ارتفاع المستوى في مهنة الطب وفي مؤسسات هذا العلم وأعني بذلك مدارسه ومستشفياته إلى الشعور بالحاجة إلى وضع قانون في ذلك وهذا ما حدث فعلا في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن،فقد تناول ذلك ضياء الدين محمد بن محمد بن الأخوّة (4) (648 / 1250 ـ 729 / 1320) في كتابه « **معالم القربى في أحكام الحسبة** » وكذلك فعل ابن الحاج العبدري (5) المتوفى 737 / 1336 في كتابه « المدخل »

---

(1) تراث فارس : ص 395 . (العلم في فارس ، بقلم : C. Elgood ، ترجمة السيد يعقوب بكر) .

(2) عن نفس المصدر : ص 400 ، التعليقة عدد 2 ، للمترجم .

(3) تراث فارس : ص 397 .

(4) انظر الاعلام : 7 ، 263 . فقد جاء الاسم هكذا : الإخوة ، قابل : تراث فارس : ص 398.

(5) سركيس : 1 ، 70 .

ومن ذلك الجراحة التي بلغت مبلغا لا يستهان به، سواء في كيفية اجراء العمليات الجراحية، أو في الأدوات المستنبطة لذلك، أو في تجبير الكسر بالعظام الذي استعملت فيه جبيرة ما يسمى بجبس باريس Plâtre de Paris قبل أن تعرفه أوروبا (1).

ومن ذلك طب العيون الذي خلدت فيه للمسلمين مآثر كثيرة، مثل عملية استخراج الماء من العين، هذا الماء الذي يسبب عمى جزئيا، وتنسب لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي المتوفى سنة 311 / 923 وقبل بعد ذلك بتسع سنوات، ومن ذلك علاج القناة الدمعية بادخال مسبر معقم، وهو منسوب لابن سينا المتوفى سنة 428 / 1037.

وأهم من كل ذلك الطب العيادي أو « الاكلينكي » Medecine Clinicale وهو التطبيب الذي يقوم على الملاحظة والمراقبة المستمرة لأحوال المرض وتطوراته، وهو من أحدث الأنواع التي يفخر بها عصرنا هذا.

وقد كان هذا النوع معروفا من عهد أبي بكر الرازي أعني منذ أواخر القرن الثالث، ثم عمل به ابن سينا في القرن الرابع والخامس، واكتشف عن طريقه الجرجاني في القرن الخامس / السادس ان تضخم الغدة الدرقية تصحبها سرعة في ضربات القلب. وبفضل هذا الطب العيادي اكتشف المسلمون كثيرا من الأمراض مثل السعال الديكي، وحمى القش Rhume des Foins ومرض الزهري وغيرها من الأمراض التي استفاد منها الطب الأوروبي في هذا العصر.

وبهذا نكون قد أتينا على أغلب الجوانب العلمية التي أقرت بحضارة هذا العصر.

---

(1) تراث فارس : ص 401.

الفـرق ودورها في هذا العصـر :

لقد كثرت الفرق في هذا العصر كثرة اشاعت الفوضى والاضطراب فتقوضت أركان الحياة الاجتماعية ، واستفحل الداء فعسر على ولاة الأمور علاجه ، وقد سبق أن المعنا لذلك عند الحديث عن الوضع الاجتماعي ونريد هنا أن نتحدث عن أبرز خصائص بعض الفرق التي كان خطرها أكثر من سواها ومن هذه الفرق :

1) **الإسمـاعيليـة :** هم قوم من غلاة الشيعة يسمون الباطنية أيضا ، وتسميتهم بالاسماعيلية نسبة إلى الامام السابع اسماعيل بن جعفر الصادق .

بدأت تظهر أهمية هذه الفرقة في القرن الثالث / العاشر عندما تأسست الدولة الفاطمية ، وقد عادوا العباسيين عداء شديدا حتى اضطر هؤلاء إلى الطعن في نسبهم واعلان أنهم في الحقيقة من ذرية الملحد الفارسي عبد الله ابن ميمون القداح المتوفى سنة 261 / 874 .

ولقد اتخذ القُداح هذا من مذهب الاسماعيلية وسيلة لنشر تعاليمه الباطنية،وقصده من كل ذلك أن يصل إلى مطامعه الدنياوية وغاياته السياسية (1).

– **طريق الدعوة إلى الاسماعيلية :** أول ما يعنى به الداعية الاسماعيلي بالنسبة لمن يريد جلبهم وادخالهم في مذهبه هو أن يثير فيهم التساؤل وحب الاطلاع ، حتى يستطيع أن يوجهه وجهة معينة طبقا لما يريد أعني طبقا للمفاهيم الباطنية .

فيعمد إلى توجيه أسئلة على هذا النمط :

– لماذا خلق الله الكون في سبعة أيام ؟

– لماذا خلق الله سبع سماوات وسبع أرضين وسبعة بحار ؟

– لماذا جعل الله في الفاتحة سبع ايات ؟

(1) Browne ، تاريخ الأدب في ايران : 2 ، 242 .

– لماذا كان العمود الفقري يشتمل على سبع فقرات في العنق وعلى اثنتي عشرة فقرة في الظهر ؟

فتثور الحيرة بمثل هذه التساؤلات في نفوس المستمعين وتجعلهم متشوقين لمعرفة السر ، وفي هذا عين السر اذ يعمد الداعية إلى اعطائهم تفاسير باطنية تكون هي نقطة الانطلاق لتلقي باقي التعاليم ، وقبل هذه التعاليم تكون البيعة من المريد للداعية وللامام الذى يمثله هذا الداعية ، وليقيم المريد الدليل على صدقه في هذه البيعة يطالب بدفع اتاوة لحساب الامام تكون عربون طاعة ومساهمة في تعضيد المذهب .

الاسماعيلية في أوجها :

بلغت الاسماعيلية أوجها من القوة في مدة المستنصر الفاطمي التي دامت أكثر من نصف قرن أعني من سنة 427 / 1035 إلى سنة 487 / 1094 .

ويعتبر المستنصر هذا هو الرئيس الأعلى للاسماعيلية،وفي عهده تفرق أتباع هذا المذهب في طول البلاد وعرضها،أعني في جميع البلاد التي خضعت لسلطة الفاطميين وحتى في سواها مثل بلاد العجم والعراق .

وبموت المستنصر تنازع ابناه : المستعلي ونزار على الحكم فانقسمت الاسماعيلية إلى فريقين :

– الفريق العربي في مصر والشام وشمال افريقيا ، وبقوا محافظين على تسميتهم القديمة .

– والفريق الشرقي في بلاد العجم،وقد امتد حتى بلاد الشام وأصبح يطلق عليهم الحشاشون نسبة إلى الحشيش وهو نوع من المخدرات،يقدمونها للمريدين ليسهل عليهم أن يصوروا لهم ما شاؤوا من الأباطيل .

مراتب الحشاشين

1) مرتبة الرفيق : وهو الذى ارتقى بفضل أقدميته في هذا المذهب ، وصار محل ثقة ومعرفة ببعض الأصول التي انبنى عليها .

2) مرتبة اللاصق : وهو الذي يكون قد بايع الامام دون أن يتبين ما تتضمنه هذه البيعة من معان وواجبات .

3) مرتبة الفدائي : وهو الذي يوكل إليه – بعد اعداده اعدادا خاصا – أمر الأخذ بالثأر والانتقام وأعمال العنف (1) .

خطورة هذه الفرقة :

لم يعرف تاريخ الإسلام فرقة أشد ظلما ونكاية بالناس من هذه الفرقة الخطيرة التي افسدت شؤون الدين والدنيا ، فقد قويت شوكتهم في بلاد العجم منذ عهد السلاجقة وصاروا مصدرا لكثير من الرعب والفجائع، فاقضوا مضاجع الملوك وهابهم الناس على اختلاف نحلهم ، فلم يجسر أهل السنة على لعنهم مثلا (2) كما لعنوا سواهم من الكفار ، وذلك خوفا من انتقامهم .

وقد طفحت المصادر وكتب التراجم بذكر أعمالهم الفظيعة واغتيالاتهم المرعبة، فقد اغتالوا الوزير نظام الملك (3) ، وفتكوا بقاضي قضاة اصبهان (4) وتامروا على اغتيال السلطان علاء الدين تكش عندما كان في مسيرته إلى بغداد ، ولكنه نجا منهم بصدفة غريبة (5)

ولم يقف أمرهم في هذا القرن (السادس) عند حدّ الانتقام لأنفسهم ممن يناصبونهم العداء، ولكنهم تعدوا ذلك إلى التنكيل بالأبرياء والتمثيل بهم ، فقد تناقلت الأخبار أنهم اتخذوا دارا يسوقون إليها الأبرياء بحيل مختلفة ، كان يتظاهر أحدهم بالعمى ثم يطلب ممن يصادفه من المارة أن يوصله إلى محل سكناه وعندما يوصله إلى باب الدار ينقّض عليه جماعة

---

(1) Browne ، نفس المرجع : 2 ، 252 – 253 .
(2) Browne ، نفس المرجع : 2 ، 253 .
(3) دائرة المعارف الاسلامية : 2 ، 182 . (فصل الإسماعيلية ، بقلم : cl. Huart) .
(4) ابن العماد : 4 ، 4 .
(5) النجوم الزاهرة : 6 ، 155 .

منهم،ويدخلونه غصبا فيكمم ويوثق رباطه إلى أن يموت جوعا وعطشا، وعندما اكتشف أمر هذه الدار وجدوا فيها عشرات من الجثث التي تعفنت، وعشرات من الأنفس تئن وهي توشك أن تلفظ أنفاسها، وهكذا كان الأبرياء من الناس يخرجون من منازلهم ولا يعودون إليها أبدا ولا يستطيع أحد أن يعلم لذلك سببا .

وهذا مثال لما كان يقوم به الحشاشون الذين اعتصموا بقلاع « الموت » فلم يقدر على اقتلاع جذورهم أحد .

2) الكرّامية .

وهم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرّام وكان من زهاد سجستان ، ثم أخرج هو وأصحابه منها حتى وصلوا إلى غرجة،فدعوا أهلها إلى اعتقادهم فقبلوا (1) وهم ممن يقولون بثبوت الصفات الا أنهم ينتهون فيها إلى التجسيم والتشبيه .

والكرامية طوائف تبلغ اثني عشر فرقة (2) من أشهرها : العابدية ، والاسحاقية ، والهيصمية ، وجملتهم يعتقدون أن الله تعالى جسم وجوهر (3) ثم يتفاوتون في تفسير ذلك وتأويله .

ولم يكن الغرض من الحديث عن هذه الفرقة الخارجة عن العقيدة الاسلامية الصحيحة،أن نفصل القول في نوعية معتقدهم وأصوله ، وإنما الدافع إلى ذلك بيان نماذج من هذه الفرق التي كثر اتباعها في هذا العصر ، مثل فرقة الاعتزال التي لم نفردها بالحديث لأن أمرها واضح وليست من الفرق الكافرة كالكرامية أو الاسماعيلية ، وقد تعددت المناسبات التي ذكرنا فيها المعتزلة فليكن في ذلك الكفاية ، على أن انتشار المعتزلة وأهل

---

(1) الفخر الرازي ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص 67 .

(2) الشهرستاني : 1 ، 108 .

(3) الرازي ، نفس المرجع .

السنة لم يكن ببلد دون اخر من بلاد الاسلام ، فالانتساب للاعتزال أو لمذهب أهل السنة هو انتساب لطريقة في فهم العقيدة الاسلامية ــ حسب ما يبدو لي ــ وليس انتسابا لفرقة، كما هو الشأن في الاسماعيلية والكرامية وغيرهما من الفرق الضالة ضلالا واضحا يتنافى مع الاصول الواضحة للاسلام ، وهذا ما دعاني أن اذكر في الفرق: الاسماعيلية أولا ثم الكرامية ثانيا، لأنهما في هذا العصر يعتبران في طليعة الفرق الضالة والكثيرة الاتباع، بقطع النظر عن المذهب السني والاعتزالي . وكان انتشار الكرامية في بلاد الغور وما حولها من البلاد القريبة. وتتبع جميع الفرق التي عاشت في هذا العصر أمر عسير ، ولذا تكفي الاشارة إلى كثرتها وإلى أن أغلبها متفرع عن غلاة الشيعة الذين ذكرنا منهم الاسماعيلية ، لنفهم أن عصر الرازي عصر تنافر عقائدي، لا مثيل له في بقية بلاد الإسلام، وقد أشار السبكي إلى قرابة الثلاثين فرقة التي نازلها فخر الدين الرازي وحده (1) ، وفي هذا ما يكفي لنفهم حياة هذا العصر التي تقوم على العصبية المذهبية والعقائدية ، ولعل هذه العصبية التي أضرت بأمن المتساكنين، لما نشأ عنها من فتن وقلاقل قد كانت سبب نفع من جهة أخرى، ذلك أنها كونت شيئا من التنافس بين هؤلاء الأقوام فانكبوا على العلوم يطلبون فيها ما يعزز جانبهم .

3) المتصوّفة .

لا يبعد أن يكون التصوف في هذا العصر ردّ فعل للانحرافات التي تمثلها الفرق والمتعصبون للمذاهب ، لأن ذلك كله ينافي واقع الاسلام السمح المتسامح .

وقد انتشر التصوف في هذا العصر ، وراج أمر المتصوفة على الناس حتى عظم شأنهم، مما أثار حمية بعض المعاصرين أمثال أبي الفرج ابن الجوزي (514 / 1120 ــ 597 / 1200) الذي ألف كتابه « تلبيس ابليس » لكشف انحراف هؤلاء المتصوفة، وبيان أن إعراضهم عن واجبات الحياة وطيباتها،

---

(1) السبكي : 5 ، 33 ــ 34 .

وأن تركهم للعلم،والعمل كل ذلك مما يأباه الاسلام ولا يعتبره طاعة ولا قربى من الله .

ولعل يد الامام الغزالي في التشجيع على التصوف في هذا العصر غير خافية،وهو الذي يعتقد ويصرح في كتابه « احياء علوم الدين » بأن الصوفية وحدهم هم أولياء الله ، وان سيرتهم أحسن السير ، وترديد هذا المعنى في كتابه في غير ما موضع ،يجعل الدارسين لكتابه يرددون ذلك على مسامع طلاب العلم وعلى مسامع العامة في دروس الوعظ ، ولا عجب بعد ذلك أن يحصل التأثير .

واذا اعتبرنا انتشار التصوف رد فعل للحركة الالحادية،التي تمثلها الفرق الكثيرة في هذا العصر،فان ما كتبه فخر الدين الرازي عن التصوف في كتابه « **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** » يعتبر رد فعل على حركة التصوف نفسها ، فالرازي قد اعتبر المتصوفة فرقة كسائر الفرق الكلامية الأخرى ، وهو عمل لم يسبق إليه ، ونص الرازي نفسه على تخطئة من لم يعتبر الصوفية فرقة من الفرق (1) وقسم الصوفية إلى ستة فرق : أصحاب العبادات ، وأصحاب الحقيقة وأصحاب النورية ، والحلولية ، والمباحية .

والملاحظ أن الرازي لم يذكر من بين الفرق أهل السنة رغم عنوان كتابه الذي يشعر بالعموم وذلك لأنه يعتبر جميع هذه الفرق محل تهمة وان عد بعضهم من المسلمين .

هذه هي الحركة العلمية بمختلف جوانبها في عصر الرازي — كما تأتى أن نتصورها — وعسى أن نكون قد قاربنا فيها وجه الحق والصواب والله يهدي من يشاء سواء السبيل .

---

(1) الرازي ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص 72 .

الحركة الأدبية

لا تقل الحركة الأدبية في هذا العصر ازدهارا وجمالا عن الحركة العلمية فيه،ويعتبر بعضهم (1) أن عدد الأدباء والشعراء قد ازداد عما كان عليه في العصر السابق ، كما أن الكتب التي ألفت فيه سواء بالعربية أو الفارسية قد خلدتها الأيام على طول المدى .

ولقد سبق أن أشرنا في طالع الحديث عن الوضع الثقافي إلى عوامل التشجيع الكبرى التي لاقاها العلماء والأدباء فكانت سببا في هذا الازدهار العلمي والأدبي،برغم كثرة الحروب والفتن،وبرغم قلة الاستقرار الاجتماعي وغلبة الشعور بالخوف وعدم الامن عند المتساكنين ، برغم كل ذلك شق العلم والأدب طريقيهما ، بل يمكن الذهاب إلى حد القول بأن الأدب والشعر بصفة خاصة قد نشطت حركته وسط هذه الحروب والمعامع فكان بازاء التراشق بالسهام الترامي بالمساجلات الشعرية ومن أظهر الأمثلة على ذلك : ما حدث بين سنجر السلجوقي واتسز الخوارزمي في سنة 542 / 1147 من من صراع فحاصر سنجر أحدى قلاع اتسز المسماة « هزار اسب » فأوحى هذا الحصار لانورى (شاعر سنجر) بقصيدة بالفارسية كتبها في ورقة ورمى بها داخل القلعة جاء فيها (2) :

أيهاذا المليك ذو التاج يا من ... كل ملك في راحتيك
قدر الله أن تسود بني الدنيا ... بمجد ألقى الزمان إليك
فانتزع في الهجوم حصن هزار اسب ... بجيش يموج في جانبيك
مائة ألف من مهارى خوارزم ... أراها الغداة بين يديك

فلما ألقيت هذه القصيدة ردّ عليها الوطواط (شاعر اتسز) بقصيدة رمّى بها في سهم على عساكر سنجر ، وجاء فيها (3) .

(1) Browne : 2 ، 373 .
(2) الترجمة لحافظ حمدي (معاصر) صاحب كتاب الدولة الخوارزمية والمغول .
(3) الترجمة لحافظ حمدي (معاصر) صاحب كتاب الدولة الخوارزمية والمغول .

اذا كان رستم (1) يا ذا المليك أهاج لحربك نقعا مثـــار،
فدون هزار اسب شم الجبال وصيد الكواكب دون المهارى
أيحلم في الفلك الصافنات ويعجز لورام منها حمـــارا

ولما سمع سنجر هذه الأبيات اغتاظ شديد الغيظ وأقسم ليقتلن هذا الشاعر ان ظفر به ، ولكنه ظفر به فعلا ولم يقتله .

وقد كان من جملة البواعث على العناية بالادب والاقبال عليه أنه يبوىء أصحابه المناصب العالية ، نعد من هؤلاء على سبيل المثال حاكم نسا وهو نصرة الدين حمزة بن محمد الشاعر باللسانين العربي والفارسي ، ومن شعره قصيدته التي نظمها وهو في السجن ، وجاء فيها :

اني لفي قيد هذا الزمان لكالدر اذ بات حشو الصدف (2)

وقد تولى هذه المناصب في الدولة في مدة علاء الدين محمد وأبنه جلال الدين منكبرتي جماعة منهم : محمد النسوي صاحب سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي التي أحلنا عليها في عدة مناسبات .

اللغـــة :

وإذا كان المنتوج العلمي الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق يعتمد في أغلبه على اللغة العربية ، فان النتاج الأدبي في هذا العصر يقوم أساسا على اللغة الفارسية أكثر من العربية ، نعيد هنا تأكيد هذه الظاهرة في بلاد العجم وهي ظاهرة ازدواجية اللغة في هذا العصر .

وما دام الأمر كذلك فلا غنى للباحث عن التحدث على الفارسية باعتبارها لغة من لغات الحضارة الاسلامية في هذه الرقعة من بلاد الاسلام .

---

(1) من أشهر أبطال الفرس يضرب به المثل في البطولة .
(2) النسوي : ص 187 . انظر باقي القصيدة .

إذا عدنا إلى العصور السابقة لهذا العصر ، أعني في الفترة التي بين الفتح الاسلامي والقرن الثالث الهجرى ، نجد أن اللغة الفارسية قد اقتصر دورها عند الزردشتية على تسجيل نصوص لديانتهم ورواياتها ، وأما عند المسلمين من الفرس الذين تعلموا العربية فكان دورهم يختلف عن دور الزردشتية، إذ أن الفارسية بسببهم أفادت من العربية وأثرت من مفرداتها اللغوية إثراء كبيرا ، فاقتبست الآلاف العديدة من مفردات العربية ، وبذلك تميزت أروع تميّزا عن اللغة الام (الايرانية) وبعد أجيال تعاقبت على صياغتها وصقلها صارت من أعذب اللغات الشرقية وأجملها جرسا (1) كما أصبحت من أبرع اللغات أداء للاداب الانسانية .

وقد قضى قانون تفاعل الحضارات بان تفيد العربية من آداب الفرس كما أفادوا هم من سعة العربية وبلاغتها وأساليبها ، ويتجلى ما أفادته العربية من الفارسية فيما ترجم إليها من كتب الأدب التي يمكن أن نطلق عليها (أدب السلوك) لأنها تتحدث عن الظروف والمواقف التي لا مناص من مواجهتها في الحياة، وتتحدث في نفس الوقت وبأسلوبها الروائي القصصي عن أفضل ما تواجه به هذه المواقف، وترجع هذه الكتب في أغلب الظن إلى العادات الايرانية القديمة وبالتالي إلى حياة القصور التي شجعت عليها واتخذت منها مسلاة راقية، نعني بهذه الكتب أمثال كتاب **كليلة ودمنة** الذى ترجمه عبد الله ابن المقفع كما ترجمه نصر الله عبد الحميد سنة 1143/538 — والترجمة العربية لهذا الكتاب — كما هو معلوم — عن أصل پهلوي يعود بدوره إلى أصل هندي . وأمثال **ألف ليلة وليلة** التي نشأت قصصه هي الأخرى في البلاطات ، ثم أضيف إليها على مر القرون حتى صارت في اخر الأمر ذخيرة استمد منها الانقليز تمثيليا تهم الصامتة (2) .

ويذهب المستشرق A. J. Arberry في الفصل الذى كتبه بعنوان : الأدب الفارسي — وضم إلى كتاب **تراث فارس** — إلى شيء من الغلو والتطرف

---

(1) تراث فارس : ص 258. (الادب الفارسي فصل بقلم : A. J. Arberry المستشرق) .
(2) نفس المصدر : ص 266 .

في الرأي ، وكأنه يحاول أن يسلب عن العربية وعن العرب كل شيء حتى التفسير للقرآن الكريم فهو يعتبره مدينا لنماذج ايرانية كتفسير الاوستا ، كما هوْ مدين لنماذج يهودية ومسيحية في تفسير الكتاب المقدس ، ويدرس هذا في حقائق أخرى كتأثر المسلمين بالأعاجم في تفصيل العقيدة والتشريع الاسلامي وكالاثر الفارسي في التصوف الاسلامي (1)

وقد عرف هذا المستشرق — سواء في كتاباته أو في دروسه بالعربية في كمبردج — بأنه ممن يحاولون اذكاء الشعوبية ، وبجرأته على سلب أكبر علم إسلامي — أقربه العام والخاص — عن العرب وهو تفسير القران وعلومه .

الشعــر :

كما حصل التفاعل بين اللغتين العربية والفارسية في هذا العصر وفي غيره فكذلك كان الأمر بالنسبة للشعر ، فقد تاثر الشعر العربي بالاعاجم تأثرا واضحا أشار إليه نقاد الأدب العربي ومؤرخوه بما يفشى الغليل ، وليس هنا مجال ذكره ما دمنا نتحدث عن بلاد العجم التي غلبت على أشعارها اللغة الفارسية ، وما كان من هذه الاشعار باللغة العربية لا يرقي مراقي نظيره — في هذا العصر على الأقل — باللغة الفارسية .

مما لا شك فيه أن الفرس قد أخذوا شكل القصيدة العربية ، وبدأوا يكتبون القصائد بلغتهم عندما أصبح حكم البلاد بيد حكام من الأعاجم شجعوا على بعث الفارسية وتنشيطها ، ولم يأخذ هؤلاء الفرس شكل القصيدة أخذا جامدا وإنما عملوا بازاء ذلك على الارتفاع بالديباجة اللفظية،فتكون ما يعرف بالحليات التي أكثروا منها اكثارا غريبا ، حتى ان براون عد في قصيدة قوامي 99 حلية بلاغية (2) .

---

(1) المصدر السابق : ص 267 .
(2) المصدر السابق : 268 .

أما الاغراض التي تعاطاها شراء هذا العصر فهي الاغراض التقليدية المعروفة في الأدب العربي من مدح وهجاء وغزل ووصف ورثاء، الا أن هذه الأغراض لم تنصب دفعة واحدة في الشعر الفارسي ، وانما كانت على تفاوت بينها وتدرج في شيوعها، وخصوصا فيما يتعلق بالخمريات وبالغزل، فأول شاعر فارسي أكثر من الغزل مثلا هو سنائي (الشاعر الصوفي) ويُعتبر المعبّد لهذا الطريق الذي سلكه من جاء بعده من أمثال العطار المتوفى 628 / 1230، الذي زاد هذا اللون من الشعر صقلا وتهذيبا ، ثم جاء من بعده جلال الدين الرومي المتوفى سنة 672 / 1273 ، وعمله لا يقل عن العطار ، ثم كان التفوق الواضح لحافظ المتوفى 792 / 1389 ، ثم كانت القمة لجامي المتوفى سنة 898 / 1492 ، وهكذا نرى مسلك التدرج الذي سلكه فن الغزل في الشعر الفارسي . (والغالب على الغزل هنا هو الغزل الصوفي) .

على أن أغراضا أخرى غير التي عددنا قد حفل بها الشعر الفارسي من ذلك مثلا : الوعظ والأخلاق عند الشاعر ناصر خسرو المتوفى سنة 481 / 1088 ، والتصوف (وأكثره في الثناء على الله) عند سنائي شاعر التصوف الشهير المتوفى سنة 1131/526 وقيل 1181/576 (وهو مستبعد) (1) والخمريات عند منوجهري المتوفى سنة 804 / 1401 ، وقبله عند عمر الخيام في رباعيته وهو المتوفى سنة 515 / 1121 .

أما إذا انتقلنا للحديث عن بعض الصيغ الخاصة بالشعر الفارسي فأول ما يتبادر إلى الذهن : المثنوي والرباعي .

– أما المثنوي فهو أشبه بالرجز في الشعر العربي ، والرجز العربي لا يعتبر ذا قيمة فنية كبرى سواء قديما أم حديثا ، وقد غلب عليه الاستعمال في المتون النحوية والفقهية وغيرها ، وليست منزلة المثنوي كذلك في الشعر الفارسي وان قارب شكل الرجز وشابهه في اتحاد قافية المصرعين، الا أنه امتد إلى جميع الابحر الشعرية . وقد ألف في هذا النوع، أعني المثنوي « شهنامة الفردوسي » التي تشتمل على 60 ألف بيت، وكان ذلك في عهد

(1) دائرة المعارف الاسلامية : 12 ، 236 . (فصل : سنائي بقلم : (T.W. Haig)

محمود الغزنوي ، وهي في الاشادة بمجد الفرس ولهذا لم يقبل عليه هذا السلطان التركي الأصل .

وقد أدّى هذا الضرب من الشعر الاقاصيص الرائعة والمحاورات الصوفية والملاحم القصيرة ومن أهم ذلك :

- **موسوعة جلال** الدين الرومي (المثنوي ، ترجمة المرحوم الدكتور محمد كفافي)
- وقصة يوسف عليه السلام وتنسب للفردوسي
- وقصص نظامي عروضي الخمسة (مجنون ليلى — حب خسرو لشيرين — أسطورة الأسكندر وغيرها)
- قصص أمير خسرو الدهلوي الخمسة أيضا
- قصص جامي السبعة
- قصص ابن أخته : هاتفي الخمسة

وهكذا ينتشر هذا اللون ويلقى رواجا كبيرا لأنه مشوّق وجذّاب.

وأما الرباعي (1) فهو — حسبما يبدو — وزن فارسي بحت ، وقد انتشر بسرعة مدهشة، ولعل السبب في ذلك أنه على جانب من البساطة والاختصار، ولعل هذا السبب نفسه هو الذي جعل العرب لا يولعون به رغم توالي العصور فقد كان هذا النوع موجودا منذ عصر الخيام المتوفى سنة 515 / 1121 ويمكن أن نتبين الاختصار والبساطة في الرباعي في هذا الشعر من رباعيات الخيام (ترجمة أحمد رامي) :

زجاجة الخمر ونصف الرغيف — وما حوى ديوان شعر طريف

أحبّ لي إن كنت لي مؤنسا — في بلقع من كل مُلك مُنيف

ولعل الخيام لا يبعد عن أبي نواس في قوله :

---

(1) يختلف الرباعي عن الرجز في الشعر العربي ، لأن للرباعي نسقا محددا في التقفيه .

أربعة يحيى بها قلب وروح وبدن
الماء والبستان والخمرة والوجه الحسن

ونقصد من وراء الاتيان بهذين النموذجين ان نلفت النظر إلى أن بيتي أبي نواس لا يساويان شيئا في الشعر العربي، فهما عند النقاد أشبه بالهذيان لفقدان كل لون من ألوان الجمال فيهما عدا ترنيمة الوزن ، فلعل هذه المقاييس عند العرب هي التي جعلتهم كما أسلفنا لا يقبلون على الرباعي ، وفي الشعر الفارسي وفرة وافرة مما ضيع على وزن الرباعي، وللخيام ، وحده وهو معروف بأنه رياضي وفيلسوف ومعروف بأن حياته مليئة بالمشاغل ، له وحده ما يقارب 730 رباعية .

ولا ننهي الحديث عن الشعر قبل الاشارة إلى لون آخر يشبه الرباعي وهو ما يسمى بالدوبيتي أو الدوبيت ، ويفترق هذا النوع عن الرباعي بأنه يضم أغلب المنظومات الشعبية التي نتغنى بها العامة والتي تثير أحيانا ذكريات النزاعات القبلية .

النثـــر

يعتبر حظ النثر — كما هو الشأن عادة — أقل من حظ الشعر في هذا العصر ويستلزم هذا ان يكون نضج هذا النّثر متأخرا عن نضج الشعـر . ورغم كل ذلك فلم تعدم اللغة الفارسية في هذا العصر مؤلفات أدبية قيمة من الكتب التي ألفت سواء في تاريخ الأدب (1) أو في التاريخ أو في التراجم، فمن كتب الأدب التي استرعت الانتباه بأسلوبها اللطيف كتاب ناصر خسرو « **سفرنامـة** » وهو عبارة عن يوميات أسفاره (نقله إلى العربية يحيى الخشاب عام 1945) (2) . وكتاب نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي وهو أشهر من أن يعرف لمأثره ومن أجلّها : المدرسة النظامية ببغداد ، ألّف

(1) لعل ما يعتبر من هذا النوع كتاب « حدائق السحر في حقائق الشعر » لرشيد الدين الوطواط وكتاب « المعجم في معايير اشعار العرب » لمحمد بن قيس (والكتاب في النقد والاوزان) .
(2) تراث فارس : ص 283 . (التعليقـة عدد 1) .

نظام الملك في أسلوب أنيق « **كتاب السياسة** » الذي تحدث فيه عن أسلوبه وسياسته في الحكم ، فأشبه بذلك برز جمهر مع كسرى .

ومن ذلك مجموعة من الكتب التي تتكلم في الحكمة العملية مثل كتاب « **قابوس نامة** » ألفه كيكاوس وهو من نوع أدب الوصايا . ومثل كتاب **أخلاق ناصري** لنصير الدين الطوسي وكتاب « **كلستان** » لسعدي ، وكتاب « **بهارستان** » لجامي .

وعرف عصر سعدي برقي النثر وتطوره، فأصبح هذا الفن يتمثل في وضع الحقائق المألوفة في عبارات رشيقة خالدة ، أو في أداء قصة بسيطة بكيفية بارعة جذابة .

أما التاريخ العام فقد ألف فيه عدد عديد من ذلك « **تاريخ كزيدة** » (التاريخ المختار) كتبه حمد الله المستوفي وضمنه منتخبات منذ مبدإ الخليفة إلى سنة 731 / 1330 .

أما ما يمكن أن يعد في كتب التراجم، فهي عبارة عن موسوعات من الحكايات والقصص، يمكن للباحث أن يجد فيها بغيته من المعلومات الطريفة التي قد لا يعثر عليها في مواطن أخرى ، ومن هذا النوع كتاب محمد عوفي « **جوامع الحكايات** » ، وكتاب نظامي عروضي « **جهار مقالة** » الذي ألفه حوالي منتصف القرن السادس / الثاني عشر – وهو عبارة عن أربع مقالات تتحدث احداها عن الاجازة في الكتابة – والثانية عن الشعر – والثالثة عن النجوم – والرابعة عن الطب .

الفنون في هذا العصر :

إن نهضة علمية وأدبية كالتي رأينا في هذا العصر لا يمكن أن تكون عارية عن رقي في ميدان الفنون ، وأبرز فنون هذا العصر تتجلى في مصنوعات من الأواني زخرفت زخرفة تدل على كثير من الرقة والبراعة وخاصة الأواني المعدنية من برونزية ونحاسية ، ومن أبرز الشواهد على ذلك ما

يحتفظ به متحف «الهرميتاج» (1) من أوان من ضمنها سطل (2) عليه كتابه منقوشة تدل على أنه من صناعة هراة في العهد السلجوقي عام 1163 م (3)

أما الرسم فان الرسوم على المنسوجات أو على الصحف والكتب تشهد بأن موضوعاتها مؤخوذة من اشعار هذا العصر ومن القصص التي طفحت بها الكتب .

وأما ما شهده المصحف الشريف من ألوان الزخرف والزينة والتفنن في رسم الحرف فهو يشهد بالذوق والبراعة لهذا العصر .

وأخيرا إن هذا الا لمحة مما يجب أن يقال عن هذا العصر الذي جمع بين المتآلفات كما جمع بين المتناقضات ، وعسى أن نكون قد وفقنا في إعطاء صورة عن عصر الرازي والحمد لله أولا وآخرا .

---

(1) يوجد هذا المتحف بلينينقراد .
(2) توجد صوره هذا السطل بالصورة المواجهة لصفحة 173 من كتاب تراث فارس .
(3) تراث فارس : ص 171 .

ثبت المصادر والمراجع

– ابن الأثير (عزالدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني) 555 / 1160 – 630 / 1232 .

الكامل في التاريخ (دار صادر – بيروت 1386 – 1966)

– أربري (أ . ج) مستشرق ، استاذ اللغة بجامعة كمبردج . A.J.Arberry
فصل الأدب الفارسي من كتاب : تراث فارس (تعريب محمد كفافي واخرين) (طبعة عيسى البابي الحلبي – مصر 1959 .)

– ابن أبي أصيبعة (موفّق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي) المتوفى 668 / 1269 .

عيون الانباء في طبقات الاطباء (ط.أولى المطبعة الوهبية 1299/1882)

– براون (إيدوار . ج .) مستشرق Browne (Edward G.)
تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي (تعريب : ابراهيم أمين الشواربي) – الجزء الثاني – (مطبعة السعادة – مصر 1373 / 1954)

– البنداري (الفتح بن علي بن محمد ... الاصفهاني) 586 / 1190 – 643 / 1245 .

مختصر تاريخ دولة آل سلجوق (طبعة مصر 1318 / 1900)

– ابن تغري بردي (جمال الدين ابو المحاسن يوسف) 813 / 1410 – 874 / 1469 .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب – القاهرة 1383 / 1963)

– حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله) معاصر .
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (ط . ثالثة – طهران 1387 / 1967)
ملاحظة : نضع رقم المجلد بين (   ) .

– ابن حجر (شيخ الاسلام شهاب الدين أحمد ... العسقلاني) المتوفى : 852 / 1447 .
الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (تحقيق سيد جاد الحق) (مصر 1385 / 1966)

– حسن (الدكتور حسن ابراهيم) معاصر ومعه أخوه .
النظم الاسلامية (ط رابعة – مطبعة السنة المحمدية – مصر 1970 م)

– حمدى (حافظ أحمد) معاصر .
الدولة الخوارزمية والمغول (مطبعة الاعتماد – مصر 1949 م)

– الخطيب البغدادى (أبو بكر احمد بن على) المتوفى سنة 463 / 1073
تاريخ بغداد (مطبعة السعادة – مصر 1349 / 1931)

– ابن خلدون (عبد الرحمان) المتوفى 808 / 1406 .
أ – المقدمة
ب – التاريخ (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر)
(مطبعة بولاق – مصر 1284 – 1867)

– ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر) 608 / 1211 – 681 / 1282 .
وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) (القاهرة 1948 م) .

– الخوانساري (محمد باقر بن زين العابدين بن جعفر الموسوي ... الاصفهاني) 1226 / 1811 – 1313 / 1895 .
روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات (ط.2.حجرية 1367 ه)

- الذهبي (ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان) توفي : 748 / 1347.
ميزان الاعتدال في نقد الرجال (ط . 1 — مصر 1382 / 1963)

- الرازي (ابو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين . الملقب بفخر الدين . المعروف بابن الخطيب) 544 / 1149 — 606 / 1209 .
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (تحقيق وتقديم : علي سامي النشار) (مصر 1356 / 1938)

- الزركلي (خير الدين) معاصر
الاعلام (ط . 2 — بين 1373 / 1954 و 1378 / 1959)

- السبكي (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين ...) 727 / 1326 — 771 / 1363 .
طبقات الشافعية الكبرى (ط . 1 — مصر 1324 هـ)

- سركيس (يوسف اليان) معاصر
معجم المطبوعات العربية والمعربة (مطبعة سركيس — مصر 1346 / 1928)

- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان) المتوفى : 911 / 1505 .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (ط . 1 — مطبعة البابي الحلبي مصر 1384 / 1964)

- شفق (الدكتور رضا زاده) معاصر
تاريخ الأدب الفارسي (تعريب : محمد موسى هنداوي) (مصر 1366 / 1947)

- الشهرستاني (ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن محمد) 479 / 1087 — 548 / 1153 .
الملل والنحل (تحقيق محمد سيد كيلاني) (مطبعة الحلبي — مصر 1381 / 1961)

- الصعيدي (عبد المعتال) معاصر .

المجددون في الاسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر (المطبعة النموذجية مصر – بدون تاريخ)

– الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) 696 / 1296 – 764 / 1362
الوافي بالوفيات (ط . Wiesbaden سنة 1959 م)

– ابن العبري (غريغوريوس بن هارون بن توما الملطي) 623 / 1226 – 685 / 1286 .
مختصر الدول (المطبعة الكاثوليكية – بيروت 1890 م)

– ابن العماد (ابو الفلاح عبد الحي ... الحنبلي) المتوفى : 1089 / 1678 .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مصر 1351 ه)

– الغزالي (الامام حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد) المتوفي : 505 / 1111 .
تهافت الفلاسفة (ط . 1 – المطبعة الخيرية مصر 1319 ه)

– أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل – صاحب حماة) توفي : 732 / 1331 .
كتاب المختصر في أخبار البشر (ط . 1 – مصر 1325 ه)

– القزويني (زكريا بن محمد بن محمود – المؤرخ الجغرافي) 605 / 1208 – 682 / 1283 .
اثار البلاد وأخبار العباد (دار – صادر بيروت 1380 / 1960)

– القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الاشرف يوسف – الوزير) المتوفى : 646 / 1249 .
تاريخ الحكماء (طبعة Leïpzig 1903 م)

– القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ..) 756 / 1355 – 821 / 1418 .
صبح الأعشى (القاهرة 1332 / 1914)

– قولدتسيهر (اينياز) مستشرق مجري Goldziher Ignaz

مذاهب التفسير الاسلامي (تعريب عبد الحليم النجار) (مطبعة السنة المحمدية – القاهرة 1374 / 1955)

– ابن كثير (الحافظ أبو الفداء اسماعيل بن عمر) المتوفى : 1372/774.
البداية والنهاية (ط . 1 – بيروت 1966)

– الماوردي (ابو الحسن علي بن محمد) 364 / 974 – 450 / 1058 .
الاحكام السلطانية (القاهرة 1298 هـ)

– المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) 766 / 1364 – 845 / 1442 .
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (ط . 2 – القاهرة 1956)

ملاحظة رقم القسم بين (   )

– النسوي (محمد بن احمد) توفى : 639 / 1241 .
سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (تحقيق : حافظ احمد حمدي)
(طبعة دار الفكر العربي – مصر 1953)

– النشار (علي سامي) معاصر .
مقدمته على كتاب الفخر الرازي وهو : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (مطبعة لجنة التأليف – القاهرة 1356 / 1938)

– هاري وهازارد .
اطلس التاريخ الاسلامي – رسم الخرائط : سميلي وكوك –
(وتعريب : ابراهيم زكي خورشيد) (مطبعة مصر)

– اليافعي (ابو محمد عبد الله بن اسعد بن علي ... اليمني المكي)
توفي : 768 / 1366 .
مرآة الجنان وعبرة اليقظان (ط . 1 – حيدراباد الدكن 1339 هـ)

– ياقوت (ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي) المتوفى :626/1228.
كتاب معجم البلدان (ط . 1 – مصر 1324 / 1906)

الموسوعات :

دائرة المعارف الاسلامية (طبعة طهران بوذرجمبري 1352 / 1933)

المراجع الأجنبية :

— Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion. London, 1928

— Dozy R. : Suppl. aux dictionnaires arabes. Beyrouth, 1968.

— Enc. de l'Islam, Nouvelle édition. Paris, 1965. Voir articles :
Ghaznawides, par J. Sourdel Thomine. (T. 2, p.p. 1074 - 1079).
Ghurides. par C.E. Bosworth. (T. 2, pp. 1125 - 1130).
'Awfi, par M. Nizameddine. (T. 1, pp. 786 - 787).

— Kramers, S.H. : Hand worter bach der Islam. Leïden, 1941.

فهـــرس الموضـوعات

الصفحـة